نبيل عمرو

صوت العاصفة

سيرة إذاعات الثورة الفلسطينية في المنفى

صوت العاصفة

سيرة إذاعات الثورة الفلسطينية في المنفى

نبيل عمرو

مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية
رام الله - فلسطين
٢٠١٣

The Voice of al-Asifa (the Storm): The Story of the Palestinian Revolution's Broadcasts in Exile

Nabil Amr

© Copyright: MUWATIN - The Palestinian
Institute for the Study of Democracy
P.O.Box: 1845 Ramallah, Palestine

2013

ISBN: 978-9950-312-79-1

This book is published as part of an agreement of cooperation
with Oxfam Novib, Netherlands

جميع الحقوق محفوظة

مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية

ص.ب ١٨٤٥، رام الله، فلسطين

هاتف: ١١٠٨ ٢٩٥ ٢-٩٧٢+، فاكس: ٠٢٨٥ ٢٩٦ ٢-٩٧٢+
البريد الإلكتروني: muwatin@muwatin.org

٢٠١٣

يصدر هذا الكتاب ضمن اتفاقية تعاون مع مؤسسة أوكسفام نوفب، هولندا

تصميم وتنفيذ مؤسسة **ناديا** للطباعة والنشر والإعلان والتوزيع
رام الله - هاتف ٠٩١٩ ٢٩٦ ٠٢

ما يرد في هذا الكتاب من آراء وأفكار يعبر عن وجهة نظر المؤلف ولا يعكس بالضرورة موقف مواطن. المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية.

المحتويات

الجزء الأول: صوت العاصفة	٧
تقديم يحيى رباح	٩
تمهيد	١٣
البدايات	١٧
دمشق– درعا، صيف العام ١٩٧١	١٧
٤ شارع الشريفين، القاهرة	٢٠
على الهواء، بدأ الأمر بخدعة بيضاء	٢٧
مخاض وولادة النشيد	٢٩
محاولة تطوير	٣٥
المحبة والصداقة	٣٧
اول مقابلة على القمة وجائزتها قلم بثلاثين قرشا	٣٩
فؤاد ياسين وتعليم القيادة	٤٤
الازمات	٤٥
بيروت	٥٠
يوسف قزاز "أبو تميم"	٥٣
حادي فلسطين والخميني وشريط الكاسيت التاريخي	٥٤

الجزء الثاني: أيام الحب والحصار ٦٣
قصة إذاعة الثورة الفلسطينية في بيروت
أثناء الإجتياح الإسرائيلي في العام ١٩٨٢

تقديم ٦٥
فؤاد ياسين

تمهيد ٧١

صوت فلسطين، صوت الثورة الفلسطينية ٧٩

شهادة أولى: اغاني العاشقين، الحكاية كلها ١٤٩
احمد دحبور

شهادة ثانية: الأناشيد ١٥٧
خالد مسمار

الخاتمة ١٦٣

إهداء

الى روح المغفور له فؤاد ياسين

عميد الإذاعيين الفلسطينيين ومؤسس صوت
العاصفة

الجزء الأول

صوت العاصفة

تقديم

لو لم أكن فلسطينياً،
ترى ماذا عساي أن أكون
لو لم أكن فلسطينياً،
سأخسر تلك الدهشة المقدسة التي لا تضاهى،
دهشة قيامتي من موتي،
ومواعيدي مع المستقبل حين نلتقى على مفارق الطرق،
واكتشافي بأن قمة الأمان أن أكون في ذروة الخطر،
وبشارتي بأني أشعل الحرائق في أزمنة الصقيع،
وأزرع أشجار يقيني في مواسم القحط
تمراً حلواً، وظلاً ظليلاً،
لو لم أكن فلسطينياً،
لخسرت ما لا يضاهى،
استرداد صوتي المسروق من حنجرتي،
وحضوري من غيابي،
وبكائي الذي أخفيته عن عيون الشامتين.

وهكذا يعود صديقي العزيز نبيل عمرو لفتح خزائن الذاكرة الذهبية، ويكتب عن تجربة فلسطينية مدهشة، هي تجربة الإذاعة الفلسطينية التي كان واحداً من فرسانها المتميزين في زمن الثورة، وهو زمن جميل مليء بالإنبثاقات، كنا نؤمن فيه أن لا شيء على الإطلاق لا نستطيع أن نفعله.

تجربة إذاعة صوت العاصفة، صوت فتح، صوت الثورة الفلسطينية، التي انطلقت في الحادي عشر من أيار (مايو) عام ١٩٦٨م، من العنوان الأشهر في زمانه ٤ شارع الشريفين المتفرع من شارع قصر النيل في قلب القاهرة، والذي ركب هو، أيضاً، مع الثورة التي كان يتحدث باسمها، بساط الريح الفلسطيني، وجدد ميلاده في مناطق متعددة، وبلاد بعيدة، مثلما قيل في الأساطير عن شجرة عجيبة ما أن يقطع فرعها حتى تتجلى بألف فرع جديد!

وهكذا كان،

فقد أنطلق "صوت العاصفة"، صوت فلسطين، صوت الثورة من الجزائر وبغداد وعمان، من درعا في سوريا، ومن صنعاء وعدن، من برج رحّال والبابلية، وجبل سينيق شرقي صيدا، وجبل تربل شمال طرابلس، إلى بيروت نفسها، ومن الخرطوم وتونس إلى أريحا ورام الله وغزة !

هنا: "صوت العاصفة"

صوت فلسطين

صوت الثورة الفلسطينية

المهم أن يظل الصوت مستمراً ولا ينطفئ، فقد عانى شعبنا الفلسطيني من كثرة الذين تحدثوا عنه رغماً عنه، وتحدثوا باسمه، وعندما جاء دوره منعوه من الكلام، وعندما انطلقت الثورة الفلسطينية المعاصرة، على يد فتح، في مطلع عام ١٩٦٥م، وجاءت معركة الكرامة في آذار عام ١٩٦٨م لتثبت أن الانتصار فعل ممكن كان لزاماً على أصحاب

البشرى أن يتحدثوا عنها بأنفسهم، وهذا ما كان حين انطلقت إذاعة صوت العاصفة، لتصنع تجربة متفردة في الشكل والمضمون، في كيمياء اللغة، في مساحة الجسارة، في الإبداع الذي يستمد معاييره من الدهشة، من شباب لم يكن احد منهم قد دخل مبنى إذاعة من قبل باستثناء رجل واحد، هو فؤاد ياسين، أبو صخر، الذي كان احد المعلّقين السياسيين في إذاعة صوت العرب.

وكنّا . بيننا وبين أنفسنا . قد عملنا بموجب القانون الذي يقول إن "افضل وسائل تعليم العوم في قلب النهر هو العوم نفسه ". وحدث أن التجربة نجحت، بل أنها نجحت أكثر من كل التوقعات، وأثبتت هذه العائلة الفلسطينية العجيبة، عائلة الثورة الفلسطينية المعاصرة، أن هذا الشعب العظيم شاءت له أقداره أن يحيا بين حدين قوة الانتشار، وعبقرية الانفجار، وكانت الإذاعة الفلسطينية هي الصوت المدوي لهذه الظاهرة الخارقة.

أعتقد أن صديقي العزيز نبيل عمرو قد استطاع، وهو يقدم هذه التجربة، أن يضع بين يدي أجيالنا الفلسطينية ما يمكن أن ينهلوا منه ويستندوا إليه، وذلك أن تجربتنا الفلسطينية في مجموعها، ابتداء من الكفاح المسلح، الذي كان يتخطى القواعد، وصولاً إلى الإعلام، الذي يرفع جناحاه كوفيتنا الفلسطينية فوق رأس الشمس، هذه التجربة تنطلق أمس واليوم وغداً من فلسفة المحاولة المستمرة، ومن عدم الرضوخ للحظة الانكسار مهما كانت قاسية.

تحية للأخ العزيز نبيل عمرو على هذا الجهد المثابر، وتحية لكل الذين ساهموا بجهد مميز في تجربة الإذاعة الفلسطينية.

يحيى رباح

تمهيد

بعد ما يقارب ثلث القرن، على صدور كتابي " **أيام الحب والحصار**"، وجدت أن ثمة أبعاداً للحكاية تبرر العودة إليها، وتسليط مزيد من الضوء على تجربة الإعلام الفلسطيني، علاوة على تمكين أجيال جديدة من العاملين في حقل الإعلام، والمهتمين بالشأن العام، من الاطلاع على تجربة كان الشخصي والمهني فيها جزءاً من الجمعي والعام.

وفي هذا السياق تندرج تجربتي الشخصية والمهنية مع إذاعة "صوت العاصفة"، والتي صار اسمها "إذاعة صوت فلسطين"، حين قررت القيادة السياسية تأسيس الاعلام الفلسطيني الموحد في العام ١٩٧٤، في هبة وحدوية مشهودة، لم تتوقف عند الإعلام، بل طالت أجهزة الأمن، حيث تم تأسيس جهاز الأمن الفلسطيني الموحد، واختار الإجماع الفلسطيني الشهيد صلاح خلف " أبو إياد " رئيساً له.

"**أيام الحب والحصار**" يحكي تجربة الإذاعة الفلسطينية في بيروت، وخصوصاً أثناء الاجتياح الاسرائيلي للبنان في العام ١٩٨٢، وقد رأيت أن أُعيد نشر هذه التجربة مع إضافات جديدة، لعلها تكون مفيدة للأجيال الإذاعية والإعلامية التي تتداول الأثير، وتنشر في فضائه اللامتناهي ما يجب أن يُنشر عن فلسطين والقضية والوطن والمجتمع والناس والحلم.

وقد يقول قائل: لقد تغيرت الإذاعة على مدى ثلث قرن، وتطورت الوسائل التقنية التي تحمل الصوت إلى الأثير، ثم إلى المستمع، ودخلت

إلى اللعبة المستمرة عناصر جديدة، لم تكن من قبل، مثل الأقمار الصناعية والميكروفونات الأكثر دقة وحساسية، وأجهزة التسجيل التي تزيد الصوت الآدمي، والموسيقي، حلاوة على حلاوة.

وأقول: هذا صحيح تماماً. إلا أن الذي لا يتغير ابداً هو الجهد الآدمي، الذي يُشغِّلُ كل العناصر القديمة والجديدة، ويعطي للأجيال دروساً بليغة وفعالة في كيفية النجاح، وكيفية التأثير. فما زالت الإذاعة هي وسيلة الاتصال الجماهيري الأولى، ورغم كل الطفرات الهائلة التي أحرزها التلفزيون، إلا أنه لم يهزم الإذاعة، ولم يضعها في المقام الثاني، فمن أين لمليارات البشر الذين يقضون جانباً من أوقات حياتهم اليومية في السيارات والشوارع والمنتزهات، أن يشاهدوا التلفزيون، ويتخلوا عن الإذاعة، التي هي في متناول اليد. فالإذاعة تدل المواطن على الطرق، وحالة الطقس، وتبث الأخبار الطازجة، والأغنيات من لحظة ولادتها، والحوارات والتعليقات، التي صارت تتم على الهاتف ويشارك فيها الملايين.

غير أن للإذاعة الفلسطينية تميزا خاصا فرضه تميز الحالة الفلسطينية ذاتها، فالوضع الاستثنائي للحياة الفلسطينية، أفرز وضعا استثنائيا للإذاعة الفلسطينية. لم تكن الإذاعة الفلسطينية شبيهة بأي إذاعة لأي كيان على وجه الأرض. كانت تنطلق أساسا من فلسطين، ثم من أي مكان يقبل أصحابه أن ننطلق منه، لتملأ أثيرها أصوات فلسطينية، إلا أنها كانت في معظم الأوقات، بعيدة عن أن تكون مالكة لحريتها ولمساحة ابداء الرأي والموقف دون قيود.

واذا كانت الإذاعات الرسمية للدول تنطق باسم قياداتها السياسية صراحة، إلا أن إذاعات الفلسطينيين كانت تنطق باسم الحلم، ولكن تحت أسقف واعتبارات الدول المضيفة، لذا كانت عرضة للتدمير، وهذا ما حدث عندما اقتلعت الجرافات السورية محطتنا البدائية في درعا، ثم كانت عرضة للانتقال من مكان إلى آخر، كما حدث مع إذاعة العاصفة أثناء معارك أيلول ١٩٧٠.

وكانت عرضة للإغلاق. وهذا ما حدث مرتين أو ثلاث مرّات، حين كانت قيادة الثورة تختلف مع القيادة المصرية، وتقوم الإذاعة الفلسطينية بتغطية الموقف على نحو لا يرضي قيادة الدولة المضيفة، حدث ذلك في زمن عبد الناصر، والسادات فيما بعد.

وفي الإضافة التي وضعتها في "الطبعة الثانية" حرصت على سرد حكايتي، كتلميذ ساهم كثيرون في تعليمه وإرشاده. وكشاهد على جهد جبار قام به متطوعون من الطلبة، تعلموا القراءة الإذاعية في أيام، ثم تعلموا الكتابة كذلك. وقد كان قائد هذه الفرقة الإبداعية رجل متكامل الخلق والمواهب اسمه فؤاد ياسين.

وفي الإضافة كذلك تطرقت لأهم ما أنتجته إذاعة العاصفة، ثم إذاعة صوت فلسطين فيما بعد، وهي الأناشيد التي وصفها الكاتب العربي الكبير يوسف ادريس "بثورة إبداعية في عالم الغناء السياسي العربي". وتحدثتُ عن تأسيس الأغنية وإنتاجها، وتجهيز المذيع من الألف إلى الياء، وصقل موهبة الكتابة عند المحللين والمعلقين، وكيف كانت القواعد المميزة للإذاعة الثورية صارمة إلى حد بعيد، وكيف كان التطوير يأتي في وقته ما جعل الإذاعة الفلسطينية مواكبة لذوق الجمهور، وشديدة التأثير فيه، عبر الثقة والإقناع والتنويع والشجاعة، تحت النار والخطر.

لم تكن الأفكار والوقائع التي يتضمنها هذا الكتاب من صنعي، بل كنت المتلقي لكل من كان يعرض فكرة جديدة، أو توجيها سديداً، وطيلة عملي الإذاعي الذي استغرق ما لا يقل عن خمسة عشر عاما، لا أذكر يوماً واحداً مر دون أن يعلمني شخص ما شيئا جديدا.

كان في ذهني، في سياق العودة إلى "أيام الحب والحصار" وإضافة شهادتي عن الفترة التي سبقت تجربة الإذاعة المقاتلة في بيروت، تقديم خلاصة تجربتي لأبناء شعبنا الفلسطيني، وللراغبين من الأشقاء العرب، لعل طلبة الإعلام، وكافة العاملين في مجاله الرحب، الحيوي،

والحساس، والمؤثر، يستفيدون ولو بفكرة واحدة. هذا ما تمنيته منذ وضعت الكلمة الأولى في هذه المخطوطة.

وقد أضفت في نهايتها شهادتين تكرّم بهما زميلان أطلا عن كثب على تجربة الإذاعة، وعلى عملية إنتاج وتأليف الأغاني والأناشيد الفلسطينية، التي أصبحت الآن من كلاسيكيات الفن الموسيقي والغنائي الفلسطيني.

وما يستحق التنويه، في هذا الشأن، أن وراء ظاهرة ما تحوّل في وقت لاحق إلى كلاسيكيات الفن الموسيقي والغنائي الفلسطيني، جيش من الرجال والنساء من أصحاب الطاقات الإبداعية، والالتزام المهني والوطني الرفيع. ولهؤلاء حكاية يجب أن تروى. وقد كان بينهم إلى جانب الفلسطينيين مصريون وسوريون، ومن بلدان عربية أخرى، وواجبنا إزاء هؤلاء أن نعترف لهم بالفضل، وألا يظل إسهامهم مجهولاً.

وبالقدر نفسه، تحفل حكاية نشوء، وتطوّر، الإذاعات الفلسطينية في المنفى، بقصص ووجوه مئات من الجنود المجهولين، والوطنيين الصادقين، والمهنيين، الذين أنفقوا العمر، والوقت، والموهبة، في إنشاء، وتعزيز، وتطوير "صوت العاصفة"، وصوت فلسطين"، وبذل بعضهم الروح على الطريق الطويلة إلى فلسطين. ولهؤلاء، أيضاً، دين في أعناقنا، وفضل يستحقونه، وذكرى وذاكرة لم يطوها النسيان.

مع كل الحب

نبيل عمرو

البدايات:

دمشق - درعا، صيف العام ١٩٧١

– أخي نبيل أرجو أن تتجه إلى غرفة مكتبك، وتكلمني عبر الهاتف.

بادئ الأمر، ظننت أن السيد فؤاد ياسين، مدير إذاعات الثورة الفلسطينية، راغب في التحدث معي في أمر شخصي، ربما يندرج في خانة الاسرار !

توجهت إلى مكتبي، وطلبت من عامل البدالة ان يوصلني بفؤاد ياسين في الغرفة المجاورة.

– ها أنذا أخاطبك من مكتبي،. قلت

– جيد. وسأل كيف حالك ؟

– الحمد لله، " كويس".

– أرجو أن تُسمعني أبيات شعر تخطر ببالك!

قرأتُ أبياتاً من الشعر القديم والحديث.

من القديم قرأت لأمرئ القيس "نحاول ملكا أو نموت فنعذرا"، ومن الشعر الحديث لمحمود درويش "لا يصل الحبيب إلى الحبيب، إلا شهيداً أو شريدا".

– أشكرك، الآن باستطاعتك الحضور؟

أفصح السيد فؤاد ياسين عن غرضه من هذا السلوك المفاجئ والغريب قائلاً:

" لقد نجحت في اختبار الصوت، واقترح عليك أن تنضم إلى إذاعة صوت العاصفة،. واستطرد:

وغداً، سوف اصطحبك إلى درعا لإجراء اختبار أكثر مهنية، وبعدها نسافر معا إلى القاهرة حيث تخضع لدورة تدريب مكثفة".

في اليوم التالي، توجهت معه إلى درعا " المدينة الحدودية" وصلنا إلى بيت صغير لا تتجاوز مساحته المائة متر مربع، وجدنا في استقبالنا رجلاً كنت زاملته في جامعة دمشق حين كنت في السنة الأولى حقوق، وكان هو في السنة الرابعة.

قدمني السيد فؤاد ياسين: "نبيل عمرو، مسؤول التنظيم الشعبي الفلسطيني في سوريا" فبادر أحمد عبد الرحمن، ولكن ببرود ظاهر: أعرفه منذ سنتين، أو ثلاث سنوات على ما أظن.

قلت مازحا كما لو إنني أرد على برودة المُستهجن: "كانت تجربتي معه فاشلة، فقد ترشحت وإياه في انتخابات اتحاد الطلبة ولم ننجح"

ضحكنا، وعقّب فؤاد ياسين، الذي كان مشهوراً بالتقاط الطرائف من ثنايا أي حديث يسمعه:

بالتأكيد المسؤول عن الفشل هو أحمد.

فوجئت بهزال الإذاعة، التي كانت تزلزل المنطقة بأصوات مذيعيها المميزين، وتعليقاتهم النارية، وأناشيدها التعبوية القوية والساحرة. لم ارَ في المساحة الضيقة للبيت الريفي ما يشير إلى أننا في إذاعة: لا مكاتب، ولا استديوهات، سوى مكتب المدير الذي هو أحمد عبد الرحمن،

وإلى جوار غرفته، غرفة نوم فسيحة تتراص فيها الأسرة، كما لو أنها مهجع جنود في معسكر، وعلى الأسرة وحولها عدد قليل من الأشخاص، يرتدون ملابس النوم، إذ لا يوجد كما قال يحيى العمري المذيع الرئيسي آنذاك، ما يدعو لارتداء ملابس أخرى، فلا أحد يرانا، ولا نرى أحداً.

بعد احتساء القهوة، والتعرف على جميع العاملين، وكانوا ثمانية، دخل فؤاد في صلب الموضوع.

أخ أحمد، اقترحت على صديقنا وصديقكم نبيل عمرو الانضمام إلى اذاعة العاصفة ولقد حضرنا لإجراء تجربة صوتية ثانية من داخل الاستديو.

أجاب أحمد: لا مجال لذلك، اعذرني يا "أبو صخر"، فلا توجد عندنا استديوهات تسجيل حتى نختبر الصوت، لدينا استديو واحد يبث على الهواء، ولا أستطيع المجازفة بإطلاق اختبار على البث المباشر.

– بوسعنا المجازفة بقراءة تنويه عن الموجات، ولا أظن أن الأمر سيستغرق أكثر من دقيقة، أو بوسعنا إجراء التجربة إثناء توقف الإذاعة عن البث،

– آسف، مع احترامي لك كمسؤول عام للإذاعات، إلا أنني مسؤول الموقع هنا، ولا أستطيع المجازفة بعمل كهذا.

تدخلت، بعدما شعرت بأن الحوار ينطوي على إهانة.

– ومن قال لكما إنني بعد هذا الحوار يمكن أن اعمل في مكان كهذا، وأضفت ساخرا إنه خرابة، قلت ذلك محاولا تثبيط همة أحمد عبد الرحمن، الذي تعامل معي كزائر متطفل لمحطة اذاعة أين منها الـ BBC.

نهضتُ واقفاً، وقلت مخاطبا فؤاد: أنا مغادر الآن إلى دمشق، إن كنت تحب البقاء فابقى بمفردك، وإن أحببت المغادرة معي فعلى الرحب والسعة

كان فؤاد قد شعر مثلي بالإهانة، وقال محتداً: حضرنا معا، ونغادر معا، ونهض.

استبقاه أحمد همس في أذنه بكلمات قليلة، ثم غادرنا المكان

استبد بي فضول ملح، ماذا قال أحمد لفؤاد همساً، بالتأكيد، إنه أمر يخصني.

سألت فؤاد عن حديث الخلوة فأجاب بسؤال:

هل بينك وبينه مشاكل أو حساسيات أو شيء كهذا ؟

أجبت: منذ زمن لم أره، ولا اعتقد أن بيننا أي شيء سلبي.

قال فؤاد: غريب، قال لي لو نبت في كف يدي شعر يمكن أن يصبح نبيل مذيعاً.

ضحكنا وواصلنا الرحلة إلى دمشق.

٤ شارع الشريفين، القاهرة

غادر فؤاد إلى القاهرة، ولم أعد أفكر في عرضه. فلقد أحبطني أحمد عبد الرحمن، ونجح في صرف نظري تماماً عن الفكرة، فما الذي يدعوني إلى انتظار أن ينبت الشعر في كفه حتى أصبح مذيعاً ؟

كان ذلك بعد أن كنا طُردنا جميعا من الأردن، وانتقل عملنا إلى دمشق. وكانت سوريا قد اغلقت حدودها مع المملكة الهاشمية، وحين قررت العودة إلى عمان لإحضار زوجتي، وإكمال حياتنا في دمشق، كان لابد من السفر إلى القاهرة، ومن هناك إلى عمّان، فهذه هي الطريقة المتاحة لدخول العاصمة الأردنية في ذلك الوقت.

سافرتُ إلى القاهرة، بصحبة "جبر الترك" وهو نقابي فلسطيني، وعضو في قيادة اتحاد عمال فلسطين. وكان زميلي في دائرة التنظيم

الشعبي. نزلنا في فندق متواضع انتظاراً لموعد رحلة عمّان. طلب صديقي جبر أن أرافقه لزيارة مقر اتحاد عمال فلسطين، في شارع جواد حسني بوسط القاهرة.

ولكي تصل إلى هذا الشارع، فلا بد من المرور عبر شارع قصر النيل، احد أجمل شوارع القاهرة، وسمته الأساسية انه يحتضن السينما التي كانت تحيي فيها كوكب الشرق، أم كلثوم، حفلتها الغنائية الشهرية، ثم تلج شارعا لا يزيد طوله عن المئة متر، وهو كذلك أشهر شارع في الوطن العربي كونه يضم المبنى رقم "أربعة" الذي تنطلق منه إذاعات صوت العرب، والقاهرة، والشرق الأوسط، والعاصفة، فيما بعد، إنه شارع الشريفين.

أمام المبنى التاريخي الداكن المكتوب على واجهته "الإذاعة المصرية"، وجدت نفسي وجهاً لوجه مع فؤاد ياسين. كان يغلق باب سيارته، ظن الرجل أنني قادم بناء على اقتراحه حين التقينا في دمشق. احتضنني بقوة، وعانقني، مظهراً كل ما باستطاعته من سعادة لتلبيتي طلبه وقال:

– إلى الاستديو.

مشيت معه، واعتذرت من صديقي جبر، الذي وجد نفسه مضطراً لزيارة قيادته، وحيداً، دون أن يعرف كذلك، أنه سيضطر للسفر إلى عمان وحيداً أيضا.

يتحرك مصعد المبنى التاريخي ببطء شديد، صعودا ونزولا، بين الطوابق ذات التصميم الهندسي القديم، حيث تفصل الطابق عن الآخر خمسة أمتار. ومنذ بناء الإذاعة في ثلاثينيات القرن الماضي، لم يتغير المصعد، ولم يتجدد، إلا أن الذين كانوا يتغيرون هم رواده من المذيعين، والمطربين، والممثلين، والكتّاب.

وقد كانت الهواية المفضلة لعم عبد الغني، عامل المصعد، والذي يحب تسمية نفسه بالمدير، هي معاكسة الركاب من الفنانين، والمذيعين،

والنجوم، واحتجازهم حتى يدفعوا له البقشيش، ولو مرتين في اليوم. كان مسليا، وشيقا، وخفيف الظل.

وصلنا إلى الدور الثالث، حيث صوت العاصفة، وجدت مقرا مهيبا أشعرني بضآلة مقر درعا. كان مكتظا بالاستديوهات المكيفة، والمعزولة بنسبة مائة بالمائة، والمجهزة بأحدث الميكروفونات، وأجهزة التسجيل. ومع أن المكاتب التي كانت في الأصل استديوهات صغيرة وضيقة، بما في ذلك مكتب المدير، الذي لا تزيد مساحته عن تسعة أمتار مربعة، إلا أن شعوراً بهيبة المكان سيطر عليَّ منذ ولوجي الباب الخارجي الضخم، وكان معظم كادر الإذاعة موجوداً في تلك الساعة التاريخية، بالنسبة لي.

وأذكر من هؤلاء: الطيب عبد الرحيم نائب مدير الإذاعة، وعبد الشكور التوتنجي طالب كلية الطب، وصاحب الصوت الذي تُفتتح به الإذاعة حين تحولت من "صوت العاصفة" إلى "صوت فلسطين"، وخالد مسمار، الطالب الأزهري صاحب الصوت الشجي السلس الذي يختصر المسافة بين حنجرته وقلوب المستمعين، وعارف سليم (المميز المحترف) الذي توفي قبل أسابيع قليلة من كتابة هذه السطور، ورسمي أبو علي، الإذاعي والأديب، صاحب الكلام الساحر، والصوت الأكثر سحراً، وبركات زلوم، الذي يتكلم معك في أي أمر، كما لو انه يقرأ عليك نشرة أخبار لفرط اندماجه في مهنته.

ومن الكتّاب: يحيى رباح، صاحب القلم الذي لا يتوقف عن التألق والتجدد، وزين العابدين الحسيني، القاص الشهير ومعبود الأطفال، وعصام بسيسو رئيس قسم الأخبار، وعبلة الدجاني، ومديحة عرفات، وأسامة شراب، وعباس زرعي، وفؤاد عباس، وآخرين، ربما نسيت بعضهم بعد مرور ما يزيد عن ثلث قرن على لقائهم.

صفق فؤاد بيديه وهتف: تعالوا جميعا للاحتفاء بزميلنا الجديد. حضر الجميع، بالفعل، واقتادني فؤاد إلى استوديو رقم ٢، الذي يستخدم للتسجيلات، وأمر حسن أبو علي المهندس التاريخي للإذاعة بتجهيز

معداته، لاختبار الصوت، وناولني أحدهم نشرة أخبار قديمة، وقيل لي حين يرفع المهندس يده طالبا منك القراءة: ابدأ

بدأت القراءة. نظرت إلى الحشد وراء زجاج الاستديو. وأحسست من حركة أيديهم، وقسمات وجوههم، أنهم سعداء لسماع صوت جديد، لشخص سيكون زميلا لهم. قرأت عدة أسطر، ولمحت اشارة المهندس بالتوقف، ثم غادرت الاستوديو لسماع صوتي لأول مرة عبر ميكروفون الإذاعة.

كانت حفاوة الذين سأكون زميلا لهم، بمثابة تشجيع لا يقاوم على حسم أمري باختيار هذا المكان لعملي الجديد، كان فؤاد ياسين وبحكم خبرته الإذاعية الطويلة، والغنية، مستعداً لتفهم الخوف الذي أثر على نبرات صوتي، في التجربة الأولى، وكان مستعداً، كذلك، لتفهم كثرة الأخطاء اللغوية. ما لا يقل عن عشرين خطأ، في ما لا يزيد عن عشرين سطراً.

انفض المحتفلون من حولي، واصطحبني فؤاد إلى غرفة مكتبه، وأغلق الباب فيما يشبه خلوة عمل.

الدرس الأوّل، وبداية العمل

– اسمع يا نبيل، صوتك إذاعي وحيوي وشاب، وحين تتخلص من خوف اللقاء الأول، مع الميكروفون، سيكون أفضل وأجمل وأكثر استقراراً. يعتبر جميع المستمعين المذيع مجرد صوت جميل، يتأثرون به، ويحبون سماعه، كالمغني، وفي حالة شخص مثل أحمد سعيد فانهم يشعرون بالاهتياج من كلامه وأدائه. إلا إنني أقول لك، ولكي تبدأ بداية صحيحة، الصوت مهم بالنسبة للمذيع، ولكنه ليس الأهم، إنه أداة نقل الأفكار، التي تتضمنها النصوص، وعليك أن تتعب على نفسك أولا باللغة، ولا تطلب من أحد ان يشكل لك الموضوع حتى في فترة التدريب، لأنك لو فعلت ذلك، فسوف تظل ضعيفا في اللغة، وستعتمد على من يضع لك الضمة والفتحة دون أن تعرف لماذا.

– سأساعدك، بأن أمنحك اسبوعين، لتعرف أين تضع الضمة، والفتحة، وأين، وأين، وأين. واستطرد:

كذلك هنالك تقطيع المادة، فلا تدخل الاستديو دون تقطيع الجمل والمفردات، كما لو كنت تصوغ قطعة موسيقية. التوقف الطفيف يشار إليه بخط مائل، والتوقف الطويل بإشارة إكس، ثم حاول أن تقرأ ما تكتب أنت، وعليك التدرب على الكتابة مع التدريب على القراءة وبوسعك الاستعانة بي في أي وقت. وكذلك عليك الاستعانة بزملائك الأقدم منك، ثم حاول الدوام في الإذاعة أطول وقت ممكن، ولا تصاب بعدوى بعض الزملاء الذين يحضرون قبل ربع ساعة من قراءة نشرة الأخبار، أو بعد خمس دقائق من موعد تسجيل برنامج.

وقال: هذا درس أول، وستنفق وقتا طويلا في التعلّم، كن صبوراً ومواظباً.

سرت رجفة خوف في روحي، لعل السبب اعتقادي المتسرع بأن مجرد اعجاب الزملاء بصوتي، وفر لي كل إمكانيات النجاح في عملي الجديد. نصائح فؤاد وتوجيهاته، بدت لي في حينها كما لو كانت شروطا تعجيزية، أو تضع على كاهلي، وأنا المبتدئ، أثقالا لا قِبَل لي بها. كيف سأهضم كل ما قاله فؤاد؟ وقد عقّد الأمر أكثر، حين قال إن كل ما قلت هو مجرد درس أول، فكيف ستكون الدروس التالية.

لحظ فؤاد علامات إحباط على وجهي، بعد سماعي درسه الأول. ولتبديد مخاوفي قال: ستبدو الأمور صعبة عليك في البداية، إلا أنها ستكون عادية وطبيعية، وسيوفر لك الدوام الطويل في الإذاعة، ومعايشة الإنتاج، والمواظبة على التدريب، مقومات نجاح، وحتى تفوق.

وقبل مغادرتي مكتبه سألني: كيف أنت والقراءة؟ أجبت: إنني مدمن على القراءة، وخصوصا في الأدب. قال: هذا مهم، بل الشرط الأهم للكادر الإذاعي، لكي يجيد القراءة والكتابة.

مضت أيام وأنا في حالة تفكير: هل أواصل التجربة، التي بدت لي مغامرة؟ سأنتقل من عمل إلى عمل مختلف كلياً، وفي زمن قياسي، ثم كيف سيكون وضعي حين أقبل بدور التلميذ، أمام هذا الجيش من الاذاعيين والمذيعين المتفوقين والمتمكنين؟ ثم كيف أرتب أمور حياتي في القاهرة؟ لم يكن قد مضى على زواجي أكثر من سنة، وبيتي في عمان.

لم استشر أحداً في خياري. فمن أستشير؟ لا اعرف أحداً هنا. كل الذين رحبوا بي، رأيتهم في الاستديو لأول مرة، بعضهم ما أن ينهي عمله في الإذاعة، حتى يسارع إلى كليته، إما لحضور المحاضرات، أو لتقديم امتحانات، والبعض الآخر يذهب إلى شؤون حياته في المدينة العملاقة " القاهرة". أخيرا حسمت أمري على النحو التالي:

كبداية، ونظراً لحياتي الجديدة في القاهرة، فإن أفضل مكان أقضي فيه معظم الوقت هو مقر الإذاعة، وأكثر عمل أشغل نفسي فيه هو القراءة، لإتقان اللغة، وقضاء وقت طويل في الاستوديو، حيث أقوم بالتدّرب على النصوص الإذاعية، ثم أحاول الكتابة. وقد جدت في نفسي، وعلى نحو مبكر، قدرة على إعداد برنامج سهل، يعتمد على حس الإنتقاء، ألا وهو أقوال الصحف. وسُمح لي بإعداد بعض الحلقات دون معاونة أحد.

ووجدتني أتطور بصورة لفتت نظر فؤاد ياسين، في أمر تشكيل المواد التي ستقرأ، سواء كانت إخبارية أو تحليلية. وسُمح لي كذلك بتسجيل الإشارات، أي الشيفرة، المرسلة إلى مجموعات العمل في الارض المحتلة مثل: من "أ.ق" إلى " س. ع" وصلت الهدية،الخ.

كنت أسجل الإشارات دون أن اعرف معناها. كانت الشيفرة مجرد اتفاق مباشر بين المرسل والمرسل إليه. "أ.ق" تعني القيادة العامة، أما "س. ع"، أو "ص. ل" وأي حرفين آخرين، فكانا يمثلان الاسم الرمزي لمتلقي الإشارة. أما جملة "وصلت الهدية" أو "الطائر في الفضاء"،الخ، فهي الموضوع الذي يراد للمتلقي معرفته، والتحرك على أساسه. كانت

شيفرة يستحيل على اسرائيل فكها، لأنها سر بين اثنين، ولا صلة لها بقواعد الشيفرات التي تستخدمها الجيوش في الحروب.

وبعد الشيفرة، طُلب مني أن أشارك في قراءة أقوال الصحف لأنها مسجلة، وأشارك في بعض البرامج. كان المهندسون يشعرون بالضجر، من كثرة ما يعيدون التسجيل، إما لضعف في أدائي، أو لأغلاط في اللغة. وكان فؤاد ياسين يراقب، شخصياً، نمو قدراتي الإذاعية. وفي أمر اللغة لم يكن ذلك الأمر، بالنسبة لي، بداية من الصفر، وإنما كان عليّ تذكر ما نسيت من قواعدها، حيث كنت دائما متفوقا فيها، أما الكتابة فلها حكاية تستحق أن تروى.

كلفني فؤاد ياسين بكتابة تعليق حول حدث وقع في منطقة الخليل، وقال لي إن معرفتك بالمنطقة، التي أنت منها، ستجعل تعليقك عنها أكثر صدقية وحرارة، فجرّبْ لتكون هذه أول مادة إذاعية تكتبها.

لم يكن لأي منا مكتب خاص به، كنا نكتب على أي طاولة فارغة، واقتصاداً في الورق، كنا نستخدم الوجه الفارغ للورقة التي يكون وجهها الآخر ممتلئا، إما بتقارير الرصد الاذاعي، أو تقارير أخرى.

بدأت الكتابة. أسرفتُ في الشرح، وقبل أن أغوص في صلب الموضوع، أو أن أصل إلى خلاصاته، أحببت استشارة الاستاذ فؤاد، في التوجه والسياق والمقدمة، وسؤاله ما إذا كنت أسير في الاتجاه الصحيح. سلمته ورقتين وقلت له: هذه هي مقدمة التعليق، فإن رأيته يشكل بداية صحيحة، فسوف استمر في نفس الاتجاه، وإن رأيته غير ذلك، فسأحاول إعادة كتابته.

ودون أن يلقي نظرة، ولو عابرة، على الأوراق التي وضعتها بين يديه، قام بحركة استفزازية صارخة إلى ابعد حد. مزق الأوراق وألقى بها في سلة القمامة.

لماذا؟ على الأقل اقرأها احتراماً لجهدي، قلت محتجا. قال: مبدئيا، سأمزق لك ورقاً، حتى يصل من الأرض إلى السقف. وثانياً، لو كان ما

كتبته قطعة أدبية تتفوق على كتابات طه حسين والعقاد، فإن مصيرها بالنسبة لي هو التمزيق، وأشار بنظره إلى سلة القمامة، فأي تعليق إذاعي هذا الذي تتكوّن مقدمته من صفحتين؟ اذاً، أنت تحتاج إلى ثلاث إذاعات مثل أذاعتنا كي تتسع لتعليقاتك.

كانت اذاعة العاصفة تبث ساعتين يومياً. ويومها عرفني فؤاد ياسين إلى بعض خصائص المواد الإذاعية. التعليق يجب ألا يتجاوز الخمس دقائق، إلا في حالة الضرورة. وتعليقي الذي مزقه كان يمكن ان يأخذ نصف ساعة. وقال لي: إن سيد الإذاعة هو الإنسان الذي يستطيع الغاءك من الوجود بضغطة زر، إنه المستمع الذي إن لحظ في تعليقك قدراً من المطمطة، والتوسع، واللف والدوران، فسوف ينتقل على الفور إلى إذاعة أخرى، ويضيع مجهودك كله.

وقال، أيضا، إن المادة الإذاعية هي الأخطر والأصعب، ففي الصحافة المكتوبة بوسعك الاستعانة بعلامات الاستفهام، أو التعجب، أو الفاصلة، أو النقطة، الخ، أما في الإذاعة فالأمر مختلف كلياً، فلا فواصل، ولا علامات استفهام وتعجب، وإنما نص بسيط مباشر، يجب ان يصل إلى المستمع، ويشده، ويسيطر على اهتمامه.

أفهمني أن بين البساطة الجذابة، والبساطة المفتعلة، شعرة يوفرها الكاتب بنسبة عالية، ويعاونه عليها المذيع، الذي يجب ان يكون فاهما تماما لما يقرأ، في طريقة أدائه، لكي لا يكون مجرد أداة صوتية نمطية. وهنا، فهمت مغزى نصيحته السابقة لي: أن اقرأ ما أكتب، لأنني في هذه الحالة أكون أكثر من يفهم المادة الاذاعية، ويُفهم الآخرين.

" على الهواء"، بدأ الامر بخدعة بيضاء

أستاذ فؤاد متى ستسمح لي بقراءة مادة على الهواء؟

وجهت هذا السؤال، وكنت قد أمضيت أقل من شهرين في العمل، بين متدرب ومعد لبرامج، وكاتب لتعقيبات قصيرة، وبعض التحليلات البسيطة. أجاب فؤاد: لا تتعجل.

وبعد مرور شهر على هذا الطلب، سمح لي بتقديم قارئ موجز الأنباء، وكان آنذاك المذيع المحترف عارف سليم. كان الموجز يسمى عندنا الأخبار في سطور، كنوع من التميز عن الاذاعات التقليدية. قال لي فؤاد: اكتب افتتاح الإذاعة، وعبارة "والآن إليكم الأخبار في سطور"، ثم يبدأ عارف بقراءة الموجز. وكان ما كُلفت به لا يتجاوز الثلاثة أسطر.

كتبت التحية المألوفة عند افتتاح الإذاعة، وكذلك الموجات التي نبث عليها برامجنا، ثم "إليكم الآن الأخبار في سطور". كان ذلك قبل ساعات من دخول الاستوديو، ومعانقة الهواء لأول مرة، إلا أنني بيَّت امراً.

فقد تدربتُ على الموجز المُعد أكثر من ساعة، وشكلته، وقطعته، عاقدا العزم على قراءته مخالفاً أوامر المدير العام. لاحظ عارف أن نسخةً من موجز الأنباء في يدي، وأنها مجهزة للإذاعة، فأبلغته بأن هذا تطور في برنامج التدريب، حيث وصلت بالتنسيق مع خالد مسمار إلى مرحلة تشكيل الموجز وتقطيعه تمهيدا لقراءته على الهواء، خلال الفترة القادمة، أو بعد أن يأذن الاخ فؤاد بذلك.

أعطانا المهندس اشارة البدء، قمت بتلاوة تحية المستمعين والموجات العاملة، وقلت الآن أتلو عليكم الأخبار في سطور، وواصلت القراءة. ذُهل عارف، ولم يملك أمام هذا التصرف إلا أن يلوذ بالصمت.

أنهيت القراءة دون لعثمة أو أخطاء، وكان فؤاد، وعلى نحو دائم، يتابع الإذاعة منذ بدايتها حتى نهايتها، كما لو أنه يؤدي واجبا مقدسا. شعر بالخوف حين سمعني اقرأ موجز الأنباء خشية وقوعي في اخطاء فادحة، وشعر كذلك بتمردي على أوامره حين اقرأ على الهواء دون إذنه.

أجرى اتصالا مع المهندس، وعارف، أبلغوه بأن نبيل اختطف الموجز، ولم يتواطأ أحد معه. وتوعدني فؤاد بعقاب في اليوم التالي. إلا أنه، وأمام إشادات الزملاء بحسن الأداء سمح لي بقراءة موجز الانباء، وبعد شهر سمح لي بقراءة الأخبار مع مذيع رئيسي، ثم سارت الأمور بعد

ذلك في سياقها البديهي، وأصبح بوسعي قراءة نشرة من نصف ساعة بأقل قدر من اللعثمة والأخطاء اللغوية.

حين التحقت بإذاعة العاصفة، وكان ذلك في العام ١٩٧١ كما أسلفت، وجدت أمامي فريقا يجيد فنون العمل الإذاعي وفق القواعد الصارمة، التي وضعها فؤاد ياسين. لا أخطاء لغوية، مع قوة في الأداء. فالمذيع هو الصوت الحي للثورة، ويجب أن يكون منسجما مع رسالته مهنياً، وموضوعياً، فالجمهور لا يستمع إلى مذيع، وإنما إلى ثورة، كذلك يمنع منعاً باتاً ذكر اسم المذيع، أو الكاتب، أو المعد، وراء كل مادة أو قبلها.

مخاض وولادة النشيد

بعد شهور من عملي في "إذاعة العاصفة"، التقيت في أحد فنادق بيروت الكاتب العربي الكبير د. يوسف إدريس، كان ضيفا على المؤتمر التأسيسي للاتحاد العام للكتاب و الصحافيين الفلسطينيين. قدمني إليه أحد الاصدقاء، ولما عرف أنني أعمل في "صوت العاصفة"، أظهر اهتماما خاصا بي، وأمطرني بكثير من الاسئلة حول مكان الإذاعة، وما اذا كانت سرية، وحول الكادر العامل فيها، وكيفية التواصل بينها وبين الجمهور، ومصادر التوجيه.

وقد فوجئ الكاتب الكبير بمعلومة أن "صوت العاصفة" ينطلق من قلب القاهرة، ومن أحد الاستوديوهات، التي يعرفها، بوصفه أحد نجوم الثقافة والأدب في مصر، فمن هو الذي بوزن يوسف ادريس، ولم يجر معه صوت العرب، وإذاعة البرنامج العام، وإذاعة الشرق الأوسط، العديد من المقابلات؟

– بتقول إيه، شارع الشريفين إياه، سأل مندهشا

– نعم، ومن الطابق الثالث.

ضحك الكاتب الكبير، وقال: كنت فاكر إذاعتكم بتذيع من فلسطين. على كل حال، هذا يعتبر نجاحاً لكم، حين تجسدون البيئة الفلسطينية بدقة وأنتم على بعد مئات الأميال منها، إلا انه قال جملة ظلت مستقرة في روحي وعقلي:

"إنني استمع إلى الأناشيد، التي تنطلق من إذاعة العاصفة، إنها الأجمل والأقوى في الغناء السياسي العربي، إنكم بهذه الأناشيد أهم المجددين في مجال الموسيقى، والأناشيد الملتزمة".

وبحكم أنني من الجيل الثاني، الذي التحق "بصوت العاصفة" بعد جيل المؤسسين، الذين حققوا عملا أقرب إلى المعجزة، فإنني لم اشهد ولادة الأناشيد الأولى مثل "باسم الله، باسم الفتح، باسم الثورة الشعبية"، ولا نشيد "فدائي" الذي ما زال حيا، لأنه ما يزال النشيد الوطني الفلسطيني، وهو من كلمات "فتى الثورة" أبو هشام المزين، وألحان الموسيقار المصري الكبير علي إسماعيل. وكذلك لم أشهد ولادة "ظل سلاحي" و"شدو الزناد" و"أنا يا أخي".

ومع ذلك، شهدت ولادة العديد من الأناشيد. وقد كان إنتاج النشيد يبدو غريبا بالنسبة لي، وهكذا كان الامر:

بمعدل مرة كل ثلاثة أشهر، يدعو مدير الإذاعة عدداً من الكوادر الرئيسية من الكتّاب والمذيعين، لعقد اجتماع تحت عنوان "الأناشيد الجديدة". ويتم في هذا الاجتماع بحث الموضوعات التي تستحق أن تكون موضوع أناشيد، ذلك، أن فكرة النشيد في "صوت العاصفة" تنطلق أساساً من صلب المعالجة السياسة للقضايا المستجدة والأحداث الرئيسة.

لم تهتم الإذاعة بأناشيد الحنين، والتغزل بجمال الوطن، وإظهار حبه، وسرد مزاياه الجمالية كلون البرتقال والسهول الخضراء الخ، بل اهتمت أن يكون النشيد مكملا للتعليق أو أنه تعليق سياسي بحد ذاته. كانت هنالك أناشيد تعالج بكلمات مباشرة، وبأداء موسيقي وغنائي

متقن، المنطلقات الأساسية للثورة الفلسطينية، وتخاطب كل قطاعات الشعب الفلسطيني في جميع أماكن تواجده مثل "يا جماهير الارض المحتلة"، و"يا شعبنا في لبنان"، وتعالج كذلك مفاهيم الثورة، وأهمية الالتزام بها، والدفاع عنها أمام الأخطار.

لم يكن يُترك للشاعر، مؤلف النشيد، أن يكتب على مزاجه، وهواه. لذا، كان مؤلفو الأناشيد هم من أكثر المشاركين في الاجتماع المشار إليه أهمية وضرورة. كان أبرزهم: "فتى الثورة" أبو هشام المزين، صاحب النشيد التاريخي "أنا يا أخي آمنت بالشعب المُضيّع والمُكبّل"، ومحمد حسيب القاضي، مؤلف عدد كبير من الأناشيد التي أعطت "لصوت العاصفة" هوية مميزة، وصلاح الحسيني، صاحب نشيد "طل سلاحي"، النشيد الأكثر شهرة، والأكثر ترديداً في المناسبات الوطنية، وفيما بعد مريد البرغوثي.

كان مدير الإذاعة يعد تقريراً عمّا وقع من أحداث بين انتاج آخر نشيد، ويوم الاجتماع، ويجري نقاشاً حول كيفية التناول، وذلك ضمن الضوابط الصارمة التي وضعها فؤاد ياسين وهي:

- ألا يزيد النشيد عن ثلاث دقائق، والأفضل أن يكون أقل.
- أن يوصل المعنى المطلوب بصورة مباشرة، وبأكثر المفردات بساطة وسلاسة.
- أن يؤدى عبر لحن سريع، وصوت جماعي قوي، والآت منسجمة مع إيقاع الكلمات، وغالبا ما يكون ملحن النشيد حاضراً في الاجتماعات، كي يتفاعل مع الفكرة والسياق وينجز عملاً متكاملا من كل الوجوه.

الملحن الرئيس كان مهدي سردانة، خريج معهد الكونسرفاتوار في القاهرة، إلا أنه قبل ذلك كان خريج سهرات شاطئ البحر في غزة، وأعراسها ولياليها الصاخبة. لقد تشرب مهدي الألحان الفلكلورية

الفلسطينية من منابعها الأصلية، وأضاف إليها ما جعلها غير تقليدية، وذلك مما تعلم في المعهد، كان يستعرض مهاراته التلحينية قبل الاجتماع فيضفي جواً من المرح، حتى أنه ذات يوم، وبحضور الرئيس ياسر عرفات، قام بتلحين وغناء مانشيتات جريدة الأهرام.

ما أن يستقر رأي المجتمعين على الأفكار التي ينبغي أن تتضمنها الأناشيد الجديدة حتى نصل إلى الأهم، أي التنفيذ.

يتوجه المؤلفون إلى خلواتهم، ويعودون في نفس اليوم، أو ربما بعد أيام قليلة، حاملين نصوصهم كي تعرض على الاجتماع الثاني، وتجري مناقشة تفصيلية للنصوص ثم بعد إقرارها يتم تسليمها للملحن. ومنذ البدايات تطوّع عدد من كبار الملحنين المصريين لتقديم إبداعاتهم للإذاعة الوليدة. علي إسماعيل ملحن النشيد الوطني "فدائي"، وعبد العظيم محمد، ملحن نشيد "شدوا الطوق"، وعبد العظيم عبد الحق/ ملحن نشيد "نقاتل ونحنا واقفين"، ومحمود الشريف، صاحب أهم لحن قتالي عربي "الله اكبر فوق كيد المعتدي"، وطه العجيل المصري، فلسطيني الأصل، ووجيه بدرخان. ومعذرة لمن نسيت.

"طوِّق"

وصلنا من الأرض المحتلة لوم قاس لعدم قيام "صوت العاصفة" بمعالجة حصار بلدة دورا الذي دام عدة أشهر. كان الحصار بغرض حمل سكان البلدة على الإرشاد عن خلية باجس ابو عطوان، وعلي أبو مليحة، وهي واحدة من أنشط وأكثر الخلايا فاعلية في فلسطين. كان الفدائيان ورفاقهما يعيشان في منطقة دورا، ويقومان بأنشطة أحرجت قوات الاحتلال لفرط علانيتها وتحديها.

كان باجس يتسلل إلى مركز بريد دورا، ويتصل بالحاكم العسكري ويقول له: اتحدث إليك من بريد دورا، أيها الجبان العاجز، أرني ماذا ستفعل؟ كان يفعل ذلك ويختفي وبعد عدة دقائق تأتي طائرات

الهليكوبتر والسيارات العسكرية وتنتشر في دورا حتى الصباح، وهي تفتش عن الفدائيين الاستفزازيين ولكن دون جدوى. وما أن يتأكد علي وباجس من أن المنطقة صارت خالية من القوات الاسرائيلية حتى يظهرا ثانية في الأعراس والجنازات وبيوت العزاء ولو لدقائق معدودات ثم يختفيان. لقد أشاع الشهيدان جوا مزدهراً بالتحدي في دورا.

وطُلب من محمد حسيب القاضي تأليف نشيد حول هذا الموقف النادر دون ذكر أسماء الفدائيين ودورا خشية الظهور بمظهر الترويج لشخصين مثلهما الكثير. اختلى حسيب في إحدى الغرف الضيقة، دخلت إليه بعد ساعة ورأيت كومة من الأوراق الممزقة ما يدل على أنه يعاني من مخاض ولادة القصيدة، بعد ساعات خرج إلينا برائعة من أجمل روائع "صوت العاصفة".

"طوق يا عدو طوق، مدينتنا وقريتنا وشارعنا وحارتنا

يمين الله يمين الله عن الثورة ما نتخلى ولا بنحيد يمين الله

طوق يا عدو وانسف منازلنا بقلبي بنيت لثورتي بيت".

أُحيل النص لمهدي سردانة وقام بتلحينه. حسيب ومهدي كتبا ولحنا إلا أن الذي بث الروح في الكلام واللحن هو الحدث وأبطاله وهكذا ولدت معظم إن لم أقل كل أناشيد العاصفة.

"إليك نجيء"

كان يحيى رباح ورسمي ابو علي يشكلان ثنائيا مبدعا في النص والأداء توصلا إلى استحداث برنامج خاص بهما أسمياه "كلمات إلى فلسطين، الوطن والشعب".

كان يحيى رباح يكتب المادة، ولكن بلغة وجدانية أقرب إلى الشعر، وكان رسمي أبو علي يسجله يوميا بصوته العريض والعميق والحنون، كنا

نقف في الاستوديو الضيق للاستماع إلى البرنامج، وكنا بعد ذلك نحرص على سماعه مجدداً قبل الثامنة بقليل، كان البرنامج الأهم في الإذاعة وكان المعتقلون حين يحصلون على مذياع ينسخون كلماته ويوزعونها كتعويذة على كافة السجون، وحين كان يحيى يتوقف لسبب ما عن الكتابة كان محمد حسيب القاضي ومريد البرغوثي يتناوبان عليه.

ذات يوم وكنت مناوبا، ولهذا حكاية ستأتي في مكان آخر مررت قرب استديو التسجيلات وسمعت صوت مريد البرغوثي يؤدي حلقة من البرنامج، كان اجتماع الخطة اليومية قد طلب منه كتابه حلقة عن عملية دلال المغربي أي عملية الشاطئ. المقطع الذي سمعته كان الأخير ويقول فيه:

" فتى يأتي يزنره الهوى والوجد، وتلو فتى وتلو فتى فيا اعداءنا عدّوا"

طلبت من المهندس حسن أبو علي أن يسمعني الحلقة كاملة، وكنت قد استوقفت مريد لسماعها معي، وما أن انتهى التسجيل حتى قلت لمريد:

– هذا شعر وليس نثرا، فلم لا نلحنه اغنية؟

قال مريد: إن أمرا كهذا لم يخطر ببالي، قلت: إذن، نادوا مهدي سردانة

بعد ان قرأ مهدي النص ومطلعه:

"إليك نجيء يا وطني إليك نجيء،

بنا وجد إذا مدته ريح هواك

فوق الأرض، فوق البحر يمتدُ

وإن متنا فلا نرتد عن عينيك

بل إنّا إلى عينيك نرتدُ"

قال: هذا الكلام يلحن نفسه بنفسه، وبعد أيام أضيفت إلى أثير "صوت العاصفة" واحدة من أجمل الأغنيات.

محاولة تطوير

كان لابد من الخروج على القواعد الصارمة، التي وضعها فؤاد ياسين للأناشيد، لم يكن ممكنا التفكير بأمر كهذا، وهو المعلم والمدير والعراب وصاحب الأمر والنهي، فيما يذاع ولا يذاع، كان متمسكا إلى أبعد الحدود بقواعده، وكنت أحاول إقناعه بأهمية الخروج على القواعد الصارمة من أجل التنوع واستقطاب الجمهور وإبعاد الملل والرتابة عن الاناشيد المتكررة التي مهما بدت جميلة ومميزة إلا أن تكرارها لن يكون جذابا للجمهور.

لم يكن فؤاد ليصغي إلى مرافعاتي في هذا الشأن، حتى يئست ولم أعد أطرح الموضوع معه. وحين غادرنا فؤاد إلى وارسو سفيرا، وتسلم المسؤولية الأولى الطيب عبد الرحيم، وعُينت نائبا له، رأيت أن الوقت ربما صار اكثر ملائمة للتفكير مجددا بتجديد الأناشيد، من خلال إذاعة أغنيات فلسطينية وعربية يؤديها مطربون محبوبون شريطة ان تكون المختارات الجديدة ذات مضمون وطني واضح ومباشر.

فما الذي يمنع من إذاعة قصيدة نزار قباني التي أدتها السيدة أم كلثوم "أصبح عندي الآن بندقية" وأغنية "الأرض بتتكلم عربي" للفنان المصري الكبير سيد مكاوي وكلماتها للشاعر الكبير فؤاد حداد. إن باستطاعتنا إيجاد عشرات، بل مئات الأغنيات الملتزمة والجميلة التي تكسر رتابة الأغنيات المتكررة، إلا أن محظورا واجهنا ونحن نتداول في الأمر، ألا وهو قلة المساحة الزمنية التي نبث عليها برامجنا، لدينا مجرد ساعتين لا أكثر. إذاً، لا مجال لمطولات قد تلتهم كل الوقت دون أن نجد ما يتبقى للمعالجات السياسية.

كلما كنا نواجه هذا المحظور الحيوي كنا نلغي الفكرة، ونستعيض عنها بالعمل على إنتاج أناشيد جديدة، إلى أن جاءت السانحة للدخول التدريجي في التطوير والتجديد، ولهذا حكاية.

قرر المصريون منح فرصة للفنان مهدي سردانة ليؤدي أغنية فلسطينية على مسرح جامعة القاهرة الذي كان من أهم المسارح في مصر، وأعد نفسه ليغني واحدة من أهم ما لحن، ومن أكثر الأغنيات الثورية شيوعا، حتى أنها كانت تغنى في قواعد الفدائيين كلازمة او شعار يحبه الجميع ويهزجون به ويدندنون به ليل نهار، إنها الإغنية التي تقول:

"لوحنا على القواعد لوحنا.. بالدكتريوف والآر بي جي لوحنا

برصاصنا شفنا الموت وما هبنا، ونفذنا العملية، وروَّحنا، يا هلا.

وحنا النشامى وين العدو يلقي، دقي قدمك يا ثورتنا دقي".

بعد أن قدم كبار الفنانين المصريين وصلاتهم جاء دور مهدي، وحين تم الإعلان عن وصلته انقطع التيار الكهربائي، فجأة، فعم الظلام القاعة الكبرى، واضطر الفنان الفلسطيني للغناء دون ميكروفون، كان التحدي قد ولد لدى مهدي طاقة إضافية، فغمر صوته القوي مساحة القاعة الكبرى وكان أن تفاعل الجمهور بصورة أقوى معه إلى أن عادت الكهرباء، وواصل أغنيته الجميلة والقوية.

كنت اتابع عملي الروتيني في الإذاعة حين سمعت صوتا قويا، تصاحبه الموسيقى الجميلة، ينطلق من استوديو التسجيلات. كان المهندس حسن أبو علي يقوم بأعمال الصيانة والتأكد من الأشرطة والأغاني والتسجيلات، فإذا به ودون قصد منه يضع الشريط الذي سُجِّلت عليه أغنية مهدي في جامعة القاهرة. كان النشيد بالصوت الفردي أقوى بمرات من النسخة المسجلة بصوت المجموعة.

طلبت من أبو علي إعادة الأغنية، ورحت اسمعها باهتمام وتركيز وفي ذهني سؤال، هل تصلح للإذاعة؟ هل بها ابدأ بخرق قواعد فؤاد ياسين، واسمح بالغناء الفردي؟

ما أن اكملت الاستماع حتى استشرت أبو علي، ما رأيك في ان نذيع هذه الاغنية الجميلة ضمن فقرات برنامجنا اليوم؟ ضحك ابو علي فلقد تذكر

ان فؤاد ياسين منع إذاعتها لأنها تخالف القواعد التي وضعها، وقال لي: ممنوعة بأوامر من الأستاذ فؤاد. قلت مازحا: إلى أن تصل هذه الاغنية إلى فؤاد في وارسو يكون ساعتها لكل حادث حديث. ضحكنا وأدرجنا الأغنية في البرنامج ومنذ إذاعتها إلى أن اغلقت الإذاعة ظلت أغنية مهدي واحدة من أفضل الأغنيات التي يحبها الجمهور.

اذاً، كُسرت القاعدة، وأمكن التحايل على الأغنيات الطويلة، بإذاعة مقاطع منها، فأي إذاعة يمكن أن تنجح دون أن يعانق أثيرها صوت فيروز وأغانيها المميزة عن فلسطين، وندائها التاريخي "سيف فليشهر"، و"زهرة المدائن" والاوبريتات الراقية تأليفا وتلحينا وتوزيعا وغناء، و"أذكر يوما كنت بيافا".

لم تكن الازمات المتتالية التي كانت الإذاعة تضطر لتغيير برامجها لتغطية أخبارها وتطوراتها لتسمح بالتوسع في إذاعة هذا النوع الراقي من الغناء الملتزم والمؤثر، إلا أننا كسرنا القاعدة، وصار بوسعنا استخدام هذا الغناء الجميل حين أسسنا إذاعتنا الخاصة في بيروت، حيث وصلت ساعات البث، خلال حرب بيروت الكبرى، إلى ما يربو عن ست عشرة ساعة. آنذاك، صار ضروريا إذاعة أغنيات فيروز، وسيد مكاوي، ومحمد حمام، وعبد الحليم حافظ، وغيرهم. وكنا نختار الأغنيات وحتى المقاطع المنتقاة بعناية فائقة كي تظل النكهة الوطنية والثورية والسياسية للاذعة بعيدة عن أن تضعف.

المحبة والصداقة

حين أصبحت المسؤول الأول عن الإذاعة، وكان ذلك في القاهرة وفي بيروت، كنت أعمل وزملائي ليل نهار، وكل ساعة كان يتعمق في داخلي اليقين باستحالة النجاح والتقدم في العمل الإذاعي، دون أن تؤمن بجدوى ما تعمل، ودون أن تحب ما تعمل.

في القاهرة كان لدينا مساحة وقت واسعة تمكننا من ممارسة الحياة العادية في مدينة الاحلام الساحرة القاهرة، لم تكن كما هي الآن شديدة

الازدحام وكثيرة فيها صعوبات الحياة. لم يكن الغلاء قد غرز أنيابه الحادة في حياة محدودي الدخل. كانت مرتباتنا تكفي لحياة عادية مستقرة، لم تكن باذخة بل كانت معقولة.

لا اذكر أنني ركبت تاكسي أجرة إلا مضطرا، وفي حالات نادرة، فهنالك الاوتوبيس المميز الذي سعر تذكرته خمسة قروش يحمل الرقم "خمسمئة". كنت، وصديقي الحبيب حتى الآن خالد مسمار، نقطع مسافة كيلو مترات مشياً حتى نصل إلى ميدان العتبة ليأخذ هو الأوتوبيس إلى سكنه في الأزهر، وأنا آخذ الأوتوبيس خمسمائة ليقلني إلى منزلي في مصر الجديدة.

وكنا في حالات كثيرة نكرر هذه الرحلة الشاقة مرتين يوميا، وعلى الطريق الطويل بين الشريفين، ومحطة الأوتوبيس. وكنا نتبادل الحكايات البسيطة الجميلة. كان خالد يراكم لآخرته أجراً، وهو يحاول هدايتي للصلاة، وكنت أصغي له باحترام وحين اضطر لإجراء جراحة في الكلى قمت بدور الشقيق والأب والأم، أزوره كل يوم في المستشفى، حاملا معي زجاجة من العصير الطازج، وما تيسر من أطعمة خفيفة، تحضرها زوجتي، بشرى، التي كانت تعتبر خالد بمثابة أخ قريب لها.

كان جو العائلة الحميم يخيم علينا جميعا ونحن في بلاد فيها رائحة غربة عن الوطن. لقد نجحنا قبل إجادة فنون العمل الاذاعي في خلق جو عائلي حميم بيننا، نحن الذين ليس لنا أقارب من لحمنا ودمنا في البلاد الأخرى، فخلقنا من أنفسنا لأنفسنا صلة قربى عميقة، أخالها ظلت حية وترافقنا حتى الآن.

كان فؤاد ياسين بمثابة الأب الذي يفتح صدره لنا، يستمع إلى شكوانا يعالج مشاكلنا، إذ لا عمل دون مشاكل، وكنا نعمل كثيرا ونتنافس وأحيانا نتشاجر. كان فؤاد هو ضابط إيقاع حياتنا داخل المكان الحميم الذي اسمه "صوت العاصفة". وكانت القيادات الفلسطينية وفي مقدمتها أبو عمار، وأبو جهاد، وأبو إياد، وأبو الهول، وكل من يحتل موقعا قياديا

في الثورة يعتبر زيارة الإذاعة والاجتماع بكادرها واجبا يكاد يكون إلزاميا. وفي المرات النادرة التي كان ياسر عرفات يشعر بحتمية ملازمة المستشفى لعارض صحي يلم به، كان يفعل ذلك في القاهرة، فيغادر إلى المستشفى من الإذاعة، ويعود من المستشفى إلى الإذاعة.

أول مقابلة على القمة وجائزتها قلم بثلاثين قرشاً

استدعاني فؤاد وقال لي بصوت خفيض كما لو أنه يودعني سراً:

– لقد اتفقت مع القائد العام. نادراً ما كنا نستخدم مفردة الرئيس في وصف عرفات. على أن نجري معه حديثا إذاعيا طويلا، وسأمنحك أول فرصة هامة في حياتك الإذاعية، فأنت من سيجري الحوار وسيكون ذلك غدا، الحديث سيكون مسجلاً، ولكن عليك أن تجري الحديث، كما لو أنه يذاع على الهواء مباشرة

هوى قلبي من هول المفاجأة. لم يكن قد مضى على وجودي في الإذاعة أكثر من عدة شهور. لم أكن قد نضجت سياسيا ومهنيا إلى درجة محاورة ياسر عرفات. ولم أكن أعلم أو أتوقع أنني بعد سنوات سأكون واحداً من طاقمه الخاص، الذي يعمل معه، ويسافر معه، واحياناً يختلف معه.

إنها المرة الأولى التي أُجري فيها مقابلة إذاعية، والمصيبة أنها ستكون مع القائد العام،. لماذا مصيبة إنها فرصة، ثم أن الأمر ليس صعبا كما تتخيل، قال فؤاد، وراح يشرح لي شروط المقابلة الاذاعية الناجحة:

– أولا، لا تخف من القائد العام، إنه وإن كانت له هالة مميزة، إلا أنه بسيط للغاية، هيئ نفسك لحوار مع إنسان عادي، إلا أنه في موقع غير عادي. من الآن وحتى ظهر الغد حضر نفسك جيداً، سوف أعطيك المحاور التي تتناولها معه، وأنت قم باستخلاص الأسئلة، وصياغتها، وعند العاشرة صباحاً سنلتقي لنناقش الأمر.

لحظت استغراباً في عيون زملائي الذين رأوا أنني غير جدير بامتياز كهذا. إن الذي يجب أن يحاور القائد العام هو مدير الإذاعة، أو نائبه، أو كبير المذيعين، وكان عندنا كبير مذيعين شديد التميز، ومكتمل الكفاءة المهنية، هو رسمي أبو علي. كانت ساعات شاقة تلك التي أمضيتها، وأنا أعد اطار وأسئلة المقابلة، تخيلت نفسي وقد أصبت بحالة من الحمى، إلا إنني نمت ليلتها نوماً عميقاً.

أعجب فؤاد بالإطار الذي وضعته، والأسئلة التي استخلصتها من محاور الحديث المفترض، وحين وصل القائد العام للإذاعة قدمني له فؤاد بصورة فيها تزكية لي وتشجيع لي أمام نفسي. وضع القائد العام يده على رأسي، وقال مازحا: خف عليّ في الأسئلة أنا لسه مريض، كانت مزحة الرئيس مفتاحا سحريا لمقابلة ناجحة أديتها دون ارتجاف أو ارتباك،

بعد انتهاء المقابلة تناول القائد العام قلما يكتب بألوان متعددة، وقدمه لي هدية ظننت أن القلم نادر وباهظ الثمن، وحين سألت صاحب مكتبة في ميدان التحرير إن كان عنده قلم مثله، وكم ثمنه؟ قال لي إنه صناعة صينية، وثمنه ثلاثون قرشا.

الجو العائلي مرة اخرى

عودة إلى الجو العائلي، وتأثيره المباشر في أداء العمل الإذاعي بصورة جيدة

كان فؤاد الذي يكبرنا بما يقارب العشرين سنة، يشدد في توجيهاته لنا، على حتمية أن يكون المذيع مرتاحا كي يشعر المستمع بالارتياح. إن المذيع المجهد أو الذي يعاني من مشاكل حياتية وعدم استقرار لا يستطيع تحييد صوته وأداءه عما يشعر به، إذا ما دخل استوديو التسجيل وهو في هذه الحالة، أو دخل إلى ستوديو الهواء لتلاوة نشرة إخبارية أو تعليق. وكان يستخدم عبارة صارت محفوظة لنا عن ظهر قلب "إن لم تستطع الدخول

إلى الاستوديو دون إن يكون لديك مشاكل في الأصل، فعلى الأقل حاول وضع المشاكل خارج الاستوديو وأنساها ولو مؤقتا"

إلا أن مشاكلنا كانت قليلة، وكلها من النوع الذي يمكن تجاوزه أو نسيانه. كان يساعدنا على اقتناص السعادة والهناء، أننا جميعا أصدقاء، ومتقاربون في الوعي، والمستوى المعيشي، ويجمعنا حلم واحد وانتماء واحد، كنا دائمي التزاور والتفاعل في معظم شؤون حياتنا. تزوج كثيرون اثناء العمل، وكنا نشكل من أنفسنا وعائلاتنا حاشية للعريس كي نقوي حضوره بين أنسبائه الذين هم غالبا من المصريين.

ما أن يمرض أحدنا حتى نقوم جميعا بالواجب. لم تكن المسافات التي تفصل بيين الأحياء التي نسكنها في العاصمة الكبرى، لتحول دون الزيارة المواظبة والتناوب على الوقوف إلى جانب سرير المريض. حين اضطررت لإجراء جراحة لاستئصال اللوزتين في إحدى مستشفيات مصر الجديدة، وكنت قد أنجبت ابني البكر، طارق، فإن الذي أخذني إلى المستشفى كان فؤاد، والذي أخرجني خالد مسمار، وإلى أن تعافيت، لم أشعر ولو للحظة واحدة أنني بعيد عن الجو العائلي، أو أن أحداً من زملائي في الإذاعة تأخر عن زيارتي والسؤال عني.

هذا الجو ضروري في الحياة وأكثر ضرورة في الغربة، إلا أنه شرط حتمي للنجاح حين يتعلق الامر بالعمل في الإذاعة، وتحديداً في "صوت العاصفة".

فترة استثنائية

علمنا عبر برقية عاجلة من برقيات وكالة أنباء الشرق الأوسط، التي تقع في الطابق الثاني من مبنى الشريفين، أن السيد وصفي التل، رئيس وزراء الأردن، ووزير الدفاع قد اغتيل ظهر اليوم في ردهة فندق "شيراتون الجيزة" في القاهرة. بدأت الأخبار تتواتر علينا تباعا ووجدنا أنفسنا في حالة استنفار، وحين يقع حدث كهذا فإن الكادر

القيادي الرئيسي الموجود في القاهرة، يفضل الحضور إلى الإذاعة حيث الأخبار من منابعها الاصلية والتوجيهات المباشرة والفورية من القيادة، لتحديد الموقف والمعالجة.

كان واضحا لنا أن شبهة تقديم الأجهزة المصرية تسهيلات مهمة لتنفيذ عملية الاغتيال فكرة منطقية، فمن يستطيع دخول فندق يقيم فيه جميع وزراء الخارجية والدفاع العرب، ومن يتجاهل متانة الاجراءات الاستثنائية والصارمة التي ينبغي أن تُتخذ لحماية أكثر رجل في العالم إشكالية آنذاك وهو وصفي التل، الذي حمَّله الفلسطينيون وحلفاؤهم مسؤولية مباشرة عن كل ما حدث في ايلول ١٩٧٠ في الأردن.

كانت التعليمات تقضي بإظهار الحياد في صياغة الخبر دون إظهار أي قدر من الابتهاج أو الشماتة أو أية إشارة توحي بتبني العملية أو تأييدها أو تبريرها، إلا أن هذا لم يكن هو المثير في الأمر، لأن المثير حقاً هو ذلك الذي حدث بعد أشهر قليلة حين قُدّم منفذو العلمية إلى المحكمة.

تدفق على مصر جيش من المحامين العرب، الذين قدموا من كل حدب وصوب ليس من اجل تبرئة المنفذين، وإنما من اجل إدانة وصفي التل، والنظام في الأردن على أحداث أيلول.

كانت الإذاعة قد أعدت برنامجا مميزا لتغطية الحدث الكبير "المحاكمة" وقد أجرت ساعات طويلة من التسجيلات الموجهة مع جميع المحامين الذين سيترافعون، وقررت الإذاعة في اجتماع الخطة تسجيل وقائع المحكمة وإذاعتها أي أن وقتا طويلا ستستهلكه الإذاعة في هذا الأمر بالذات.

كان أبرز المحامين وأشدهم لفتا للنظر هو السيد أحمد الشقيري الرئيس الأسبق لمنظمة التحرير الفلسطينية، كان المغفور له أحمد الشقيري "ابو مازن"، أحد أهم خطباء العربية، إن لم يكن أهمهم. ثمة ملامح مشتركة بين طريقته في إلقاء الخطاب وطريقة أحمد سعيد في قراءة التعليق. وكنا نسجل المرافعات وننقلها ونذيعها على حلقات.

في تلك الأثناء ارتفعت نسبة متابعي "صوت العاصفة" إلى عشرات أضعاف النسبة العادية، وتأكد لنا وللمرة المائة، ربما أن الأيام العادية، والأحداث العادية، هي الخصم الفعال لإذاعتنا، بينما الأحداث الصاخبة، هي التي توفر للإذاعة ازدهارا واسعا فتقفز من ذيل قائمة الإذاعات المؤثرة إلى رأسها.

إخفاق

لم تكن إذاعة "صوت العاصفة" مجرد لوحة مجد ونجاح باهر، بل كان لها اخفاقات مدوية خصوصا في أمر المعالجات المتسرعة لبعض القضايا، واحياناً المبالغة فيها، وعدم منطقية بعض الأخبار التي لا يقبلها العقل، خصوصا حين نصف المعارك ونغالي في أرقام خسائر العدو.

كان من أخطائنا التي تأخرنا كثيرا وطويلا حتى تفاديناها حين كنا ننسب ضحايا حوادث الطرق في إسرائيل لعمليات ثوارنا، وكنّا نستخدم لازمة مملة تقول والجدير بالذكر أن العدو دأب على إخفاء خسائره بتحميلها إلى حوادث الطرق. كان تبريرنا لهذا النوع من الخطأ الفادح أن الأخبار تأتينا من المركز. إذاً، فهو الملام، وكان تفسيرنا لخطأ المركز يقوم على أساس الحرص على تقوية معنويات الجمهور دون أن ننتبه إلى أن حصيلة خطأ متراكم كهذا هي إضعاف مصداقية الإذاعة ما يضعف ثقة الجمهور بها وبالثورة إجمالا.

وخطأ آخر وقعنا فيه وقد تم تداركه بعد وقت قصير وهو اتهام العمال الذين يعملون في اسرائيل بالعمالة ومطالبتهم بالتوقف عن العمل، وذلك عبر نداءات مباشرة بهذا المعنى. لقد توقفنا عن معالجة هذه المسألة الشائكة بعد أن جاءتنا نداءات صريحة ملخصها قبل أن تمنعوا العمال من العمل في اسرائيل، وفروا لهم عملا أو دخلا لا يميتهم من الجوع. وكذلك الأمر مع الشرطة وقطاعات أخرى من الموظفين إلاّ أن عجلة الأحداث التي تدور بلا هوادة طوت هذه الامور ولم تعد بحد ذاتها قضايا مفصلية للثورة وإذاعتها.

فؤاد ياسين وتعليم القيادة

لو أسميت هذه المخطوطة، فؤاد ياسين، لما أوفيت الرجل حقه. لم يكن مجرد مؤسس لإذاعة ثورية، كما لم يكن بالتأكيد يؤدي وظيفة على النمط التقليدي. كان مجددا ومبدعا، وكان قائدا بكل ما للكلمة من معنى إيجابي. كان يوجهنا وكنا نصغي إليه، من خلال وعينا لتاريخه في الحقل الإذاعي وتفوقه المهني علينا جميعا.

فقد عمل سنوات طويلة في إذاعة دمشق، وسنوات أخرى في صوت العرب، وحين كُلّف بتأسيس "صوت العاصفة"، وضع كل الدروس التي تعلمها في الإذاعتين الكبيرتين في مفاعل إبداع وتجديد وإضافة. كان أكبرنا سناً، يكتب التعليق الأساسي للإذاعة، وكان بعنوان " كلمة الجماهير الثورية" يحفظ الشعر، ويجيد اللغة العربية والانجليزية وعلى نحو معقول "العبرية"، التي تعلمها وهو في الخمسينيات من عمره. كنا نتسابق على قراءة المادة التي يكتبها. فهو صاحب الكلمات السلسة المنتقاة، والجمل القصيرة الواضحة والجذابة، كنا نقرأ تعليقه، وهو مكتوب بخط اليد، الفاصلة في مكانها والنقطة، وبداية السطر، وكل ذلك كان يوصل الفكرة بلا عناء.

في الاجتماع الفصلي الذي ينعقد كل ثلاثة اشهر، ويتم فيه وضع خطط الدورة الإذاعية الجديدة، بحيث يتم تثبيت البرامج الناجحة، واستبعاد التي لم تنجح واستبدالها ببرامج جديدة، قرر فؤاد الإقدام على تجربة غير مسبوقة، وهي أن يتولى ادارة الإذاعة ليوم واحد أحد الكوادر من المذيعين أو المحررين، وأعلمنا أن خطته هي التالية:

حين يُعقد الاجتماع اليومي، الذي لم تنقطع عنه الإذاعة، إلا حين أُلغيت، يكون رئيس الاجتماع هو الشخص المناوب وليس المدير، ويكون قد استمع قبل يوم إلى البرنامج من الفه إلى يائه، ليضع ملاحظاته عليه، وليعد مقترحات المعالجة ليوم مناوبته، وبذلك يصبح المناوب هو المدير الفعلي للإذاعة وصاحب القرار النهائي في برنامجها.

فهو من يوزع المواد على الكتّاب والمذيعين. يراجع الأخبار والبرامج والتعليقات، وله حق الشطب والإضافة، يأتي إلى الدوام عند التاسعة صباحاً، ويغادر عند التاسعة مساءً، أما مدير الإذاعة فكان له يوم كالآخرين، ولم يكن يتدخل إلا في الشؤون الإدارية.

سألت فؤاد ياسين، ما الذي يجعلك تفكر بهذه الطريقة؟

قال: الحاجة.

قلت: وما حاجتك لنظام كهذا ؟

قال حاجتنا وليس حاجتي، هذه الإذاعة يجب أن تتحول إلى مدرسة لتخرج القادة الإذاعيين، فلدينا أكثر من إذاعة في اليمن والجزائر وبغداد، وربما بهذه التجربة أرسل أي واحد منكم إلى أي إذاعة لنا، وأكون مطمئنا لسير العمل. وضع فؤاد خطته موضع التنفيذ وبذلك يكون قد أسس لجيل مهني من القادة الإذاعيين الذين تسلموا مسؤولية جميع إذاعات الثورة حيثما وجدت.

الأزمـات

قبل أيلول ١٩٧٠، لا أعاد الله مثله علينا وعلى أشقائنا في بلاد العرب، كانت تجري مناوشات شبه يومية بين الفدائيين والقوات الأردنية. وكان بعضها يتطور ويتسع ليشكل مقدمة لمعارك واسعة النطاق في العاصمة الاردنية عمّان، واحيانا في مدن أخرى. وحين تتمادى الاشتباكات ويتورط المستوى السياسي في أزمة علنية، تتحول الإذاعة من ناطق باسم الثورة إلى ناطق باسم الأزمة.

كانت الإذاعة بمثابة جيش الهجوم المرعب، الذي تخشاه الأنظمة، نظراً لقوة تأثيره في الجمهور، وكلما كانت الازمة تجد سبيلها إلى الحل، كانت تهدئة الإذاعة هي البند رقم واحد، في أي بيان مشترك أو اعلان عن اتفاق، في تلك الازمات التي تواترت. ما قبل أيلول، لم أكن اكثر

من مستمع مواظب للإذاعة أتفاعل مع كثيرين غيري معها، واستقي منها أخبار الازمة وتطوراتها. وقد عرفت فيما بعد أن خطاً ساخناً كان ممتدا بانتظام وتواصل بين مركز القيادة في عمان وإدارة الإذاعة في القاهرة.

كانت الأخبار ترد لحظة بلحظة، وكانت الأزمة بمثابة تجديد لشعبية الإذاعة وسيطرتها شبه المطلقة على الاثير، حيثما يصل ارسالها. هذا النوع من الازمات أفضى أخيرا إلى المعركة الكبرى التي دونت في التاريخ بعنوان أيلول الأسود ١٩٧٠. في تلك الأثناء كانت إذاعة العاصفة من القاهرة قد أغلقت وتمت الاستعاضة عنها بإذاعة بدائية تغطي بالكاد بعض مناطق عمّان حملت اسم "زمزم".

وكانت بعيدة كل البعد عن مستوى إذاعة العاصفة من القاهرة، إلا أنها كانت توفر مصداقيتها من حرارة المعارك، وبطولة المذيعين المواظبين على أداء عملهم تحت القصف دون أن يظهر أي قدر من الرعب أو الهلع على أصواتهم. كان المواطنون يسمعون إلى جانب صوت المذيعين ربحي عوض، وخالد مسمار، أصوات القذائف وهي تنهمر على الموقع أو في محيطه، وكان المحيط جبل الأشرفية في عمان وبعد ان بدا واضحا سيطرة النظام على العاصمة، وبدأ اخلاء الفدائيين عن مواقعهم في عمّان، اخليت الإذاعة الصغيرة لتهاجر إلى درعا أقرب مدينة سورية على تماس مع الحدود الأردنية، كان "صوت العاصفة" من درعا بمثابة الشهقة الأخيرة التي صدرت عن تجربة الثورة في الأردن. كان لديها بعض أمل في أن يستعيد الفدائيون نفوذهم على الفردوس الجغرافي الذي طردوا منه، إلا أنها هي بالذات اقتلعت من جذورها، والذي فعل ذلك هو آليات الجيش العربي السوري، حيث لم تستطع الدولة الحليفة تحمل "صوت العاصفة" ينطلق من أرضها، وهي بصدد مصالحة مع النظام الاردني بعد أن قاطعته وخاصمته لردح من الزمن.

ازمة اخرى.

كان جمال عبد الناصر أشبه بطائر الفينيق، حمل على أجنحته القوية والكبيرة الثورة الفلسطينية الوليدة، ووصفها بأنبل ظاهرة عرفتها الأمة العربية في العصر الحديث، وأنها وجدت لتبقى.

كان عطف ودعم عبد الناصر بمثابة كلمة السر التي فتحت أهم الأبواب أمام الثورة الوليدة، حتى أن عبد الناصر ذاته حمل ياسر عرفات في طائرته إلى موسكو وقدمه للقادة السوفيات كممثل للشعب الفلسطيني، الذي أطلق ثورة وطنية تحررية وآن الأوان للدولة العظمى، أن تمنح هذه الثورة الواعدة اعترافها ورعايتها ودعمها.

إلا أن التطورات السياسية اضطرته لقبول مشروع روجرز الذي ينطوي على تنازلات تبدو جسيمة حين يقدم عليها جمال عبد الناصر، صاحب شعار ما أُخذ بالقوة لا يسترد بغير بالقوة. والأهم من ذلك فهو معبود الجماهير العربية من المحيط إلى الخليج، وهو أملها الحي، بتجسيد هذا الشعار البليغ. كان قبول عبد الناصر للمشروع الأمريكي، بمثابة حركة اضطرارية يكسب فيها الوقت لاستكمال حائط الصواريخ السوفياتية، الذي شرع في بنائه على طول الجبهة الجنوبية، والذي من دونه لن يستطيع القيام بحرب استنزاف فعالة تمهد لحرب أكتوبر، التي نفذها خلفه السادات، بعد سنوات من رحيل الزعيم الكبير.

كانت الثورة الفلسطينية قد جذرت نفوذها ووجودها في العاصمة الأردنية عمّان، وقد أتاح لها هذا الوضع تنظيم أكبر مظاهرة شعبية أردنية فلسطينية اعتراضا على قبول عبد الناصر لمشروع روجرز. وقد رفعت لأول مرة، ربما في العالم العربي، شعارات تتهم عبد الناصر بالخيانة والاستسلام، وقيل إن أحد التنظيمات الفلسطينية ثبت صورة عبد الناصر على ظهر حمار وسار به في شوارع العاصمة عمّان.

صُدم عبد الناصر من المشهد المأساوي والمهين، وامتلأ صدره بمرارات موجعة لما اعتبره خذلانا له من شعب لم يقصر في دعمه منذ حرب ١٩٤٨، فأمر بإغلاق "صوت العاصفة"، وبصعوبة بالغة كما قال صديقه الأقرب محمد حسنين هيكل قبل استقبال عرفات في الإسكندرية وقال قولته الشهيرة: لو كنت فلسطينيا لرفضت مشروع روجرز، ولكن ليس بهذه الطريقة!

اعتذر عرفات عما بدر من بعض التشكيلات التي تجاوزت الحدود، وبعد فترة وجيزة اندلعت معارك أيلول وفي أيامها الأخيرة توفي عبد الناصر. إلا أن خليفته السادات قرر إعادة فتح "صوت العاصفة"، وأيامها التحقت بالعمل فيها.

أزمة مع السادات.

كنت جالسا اتبادل حديثا مع المدير فؤاد ياسين، حوالي الساعة الثانية عشرة ظهراً، حين دخلت إحدى الأخوات العاملات في قسم الأخبار، كانت تؤدي عملها بروح الموظف الذي لا يبالي إلا بساعات الدوام، وقفت أمام المدير وقالت:

– أستاذ فؤاد وصلنا من "ا.ش.ا" أي وكالة انباء الشرق الأوسط برقية أحب أن تطلع عليها،

تناول أبو صخر البرقية،، تغير لون وجهه، نهض واقفا وقال: يبدو ان الحرب قد بدأت.

وقرأ لي البرقية، كانت عبارة عن تصريح لناطق مصري عن بدء العمليات وتصريح اخر لموشي دايان يقول، لقد تمكن المصريون من اختراق خط بارليف، الذي أصبحت تحصيناته أشبه بقطعة الجبن السويسري، التي فيها من الثقوب أكثر مما فيها من الجبن.

دعا فؤاد إلى اجتماع طارئ، قرر تغيير البرنامج أي إلغاء ما تم إعداده في الظرف العادي، وأُعلنت حالة الطوارئ في الإذاعة، وأمر الجميع بعدم المغادرة.

كان لنا قوات تشارك في الحرب، وقد قمنا بمجهود فعال طيلة أيامها، كنا نقدر إنها ستحمل لنا الفرج أو على الأقل ستفتح باباً لحل قضيتنا المستعصية، بعد أيام تبين أنها مجرد حرب تحريك، فذابت الآمال في نفوسنا إلا أننا ظللنا بحكم الموقف السياسي الرسمي ملتزمين بدعم المجهود السياسي المصري.

اضطر السادات، كما اضطر عبد الناصر، إلى إبرام اتفاق سيناء، كان التوجه المركزي للسادات قد ظهر جليا بأنه سيكتفي بما حقق على القشرة من انجاز عسكري وسيتجه إلى المفاوضات، والاتفاقات مع اسرائيل.

كان موقف الثورة الفلسطينية معترضا بشدة على اتفاقية سيناء، وهنا وجدنا أنفسنا في الإذاعة في موقف حرج، فإن التزمنا موقف القيادة وعرضناه وروجنا له فستغلق الإذاعة حتماً، وإن تجاهلناه فباسم من ينطق "صوت العاصفة"؟

كان وزير إعلام السادات آنذاك هو أحمد كمال ابو المجد، وهو رجل مثقف وطيب السمعة، ولقد استدعى مسؤول الإذاعة آنذاك، وكان طيب عبد الرحيم، أما فؤاد الذي كسر قلمه بعد أول قرار لوقف إطلاق النار، فقال إن الأجدر أن نسميها بحرب أكذوبر، وغادر سفيراً إلى بولندا.

اصطحبني الطيب معه لمقابلة الوزير، كان لطيفا وحنونا للغاية وطلب منا أن لا نهاجم الموقف المصري من قلب القاهرة إذ لا داعي للإحراج والمشاكل. كان ذلك بمثابة إنذار مهذب، إلا أنه اصبح قراراً شديد القسوة حين أذعنا قرارات القيادة المنددة باتفاقية سيناء، وأُمرنا في اليوم التالي بعدم التوجه إلى الإذاعة التي ختم بابها القديم والسميك والعالي بالشمع الأحمر.

بيروت

حين صدر قرار إغلاق الإذاعة في القاهرة، كرد على اتفاقية سيناء، قررت القيادة الفلسطينية تأسيس إذاعة ميدانية في بيروت. وقد كُلّف فلسطيني بتجميع إذاعة، نظرا لصعوبة الحصول على إذاعة متكاملة وشحنها وتركيبها وإطلاق بثها من بيروت. الرجل كان ذكيا وطموحا ودؤوبا اسمه ابو خالد حمام، كان يعمل ضمن جهاز الشهيد أبو جهاد، ويقوم بتركيب أجهزة اتصال وأمور أخرى لا نعرفها.

كان الطيب عبد الرحيم، وهو المسؤول الأول عن الإذاعة التي أغلقت، والإذاعة التي يجري تجميعها، قد غادر إلى بيروت لمتابعة العمل هناك، أما أنا وكنت نائبه فقد استقر الرأي على أن أبقى في القاهرة، لتزويد بيروت بما يلزم من الكوادر والمواد الإذاعية.

بدأت الإذاعة في بيروت بالعمل، لم تكن قدرتها الفنية كافية لتغطية ما نطمح، كانت تغطي بعض مناطق من لبنان وبعض مناطق من شمال فلسطين، ونادراً ما تُلتقط في سوريا، إلا أنها كانت إذاعة على أي حال، تضمن إيصال صوت الثورة إلى قطاع محدود من البشر. وكنا بحاجة ماسة حتى إلى هذا.

غادرت وجميع من كان قد تبقى من زملائي القاهرة إلى دمشق ثم إلى بيروت وبدأنا العمل، بعد فترة تم تعيين طيب عبد الرحيم سفيراً في الصين، وتم تعييني مسؤولا عن الإذاعات الفلسطينية. وكانت آنذاك تنتشر في الوطن العربي، من الجزائر غربا حيث تحمل إذاعتنا على جميع الموجات العاملة في الإذاعة الجزائرية، وتغطي إلى جانب المغرب العربي معظم أنحاء أوروبا، وكثيراً من مناطق العالم الأخرى. وقد وفرت لنا هذه الإذاعة ومدتها ساعة كاملة يوميا اتصالا منتظما مع الفلسطينيين، وأنصار الثورة من العرب أينما وجدوا.

وفي القاهرة (قبل توقف الإذاعة) حيث البث يصل إلى ساعتين ونصف يوميا، ومن ضمنها ساعة على أقوى الموجات المصرية العاملة، وكانت

تغطي بوضوح شديد منطقة الشرق الاوسط بكاملها، ثم إذاعتنا في بغداد، وإذاعتان في صنعاء وعدن، إلى جانب إذاعات محلية في أمريكا اللاتينية كانت تطلب دعماً ببعض البرامج والأناشيد وكنا نلبي احتياجاتها، ما وضعنا على الأثير في جميع أنحاء المعمورة.

كانت صورة بيروت قبل الحضور إليها مرعبة ومنفرة، فهذه المدينة الجميلة التي كانت بمثابة الفترينة الحضارية الأولى للعالم العربي تنهشها النار، ويشوه وجهها الدمار ويوقف نموها الذي كان فلكيا ذلك الاقتتال الشرس الذي لم ينج منه أحد أو طائفة أو فريق سياسي. كانت بيروت مكانا يتقاتل فيه وعليه الجميع مع الجميع، فيما يشبه انتفاضة غرائز مكبوتة لعقود في نفوس الناس الذين يشكلون خليطا كثير التنوع في عناصره ومكوناته.

لا دين ولا مذهب ولا عقيدة ولا استخبارات ولا ولا ولا، إلا وكان له في بيروت ميليشيا قادرة على تهشيم الواجهة الزجاجية التي هي الاستقرار والحداثة، وقادرة أيضاً على إلحاق المدينة الجميلة والأنيقة والمتحررة بذيل قوائم القرى أو الخرب التي تعج بالتخلف وتسكن فيه.

ذلك هو السر الذي يفسر لماذا لم ينج أحد من الاقتتال في بيروت ثم في لبنان كله، ثم لماذا لم يتوصل أحد بعد إلى الإجابة عن سؤال لماذا؟ كان الفرقاء جميعا يقتتلون بحماسة وشراسة وهم جميعا يعلمون أن لا أمل لهم في كسب الحرب، وأنهم في وقت ما سيجلسون إلى مائدة اقتسام العيش على بقايا الوطن، تلك البقايا التي نجت من ألسنة النار.

كان الوافدون إلى بيروت يحملون معهم اجنداتهم المتعارضة، التي هربوا بها من قسوة الانظمة شديدة الشراسة تجاه من يخالفها. كانت بيروت بمثابة المنطقة الحرة الجاهزة لاستقبال كل البضائع السياسية والعقائدية الممنوعة في البلدان الأخرى، والجاهزة كذلك للإتجار بها، لقاء ما يسمى بالكوميشن، غير أن هذا الكوميشن كان يُغلف بشعارات

مجيدة وبرامج توحي بأن معلنيها هم من العقائديين الذين لا مانع لديهم من الموت دفاعا عن هذه البرامج. وكانوا احيانا يموتون رغم كل محاولات النأي بالنفس وتجنب الخطر المباشر.

أما الفلسطينيون الذين كان الجميع يتسابق على جر رجلهم إلى الحرب الأهلية التي نشبت أساساً بفعل وجودهم المسلح، وبفعل شعور من طائفة معينة، بأن الفلسطينيين سوف يحسمون الأمور بانضمامهم بكل قوتهم البشرية والتسليحية وحتى السياسية والاقتصادية، إلى جانب طائفة أخرى، ما يخل بالتوازن المختل اصلا بين مكونات الدولة والمجتمع.

الفلسطينيون هؤلاء يتمترسون في لبنان بعد أن طردوا من فردوس الجغرافيا السورية والأردنية، وصاروا تحت السيطرة الفعلية لأجهزة هاتين الدولتين، تلك الاجهزة التي هي بكل المقاييس أقوى مما لدى الدولة اللبنانية ألف مرة.

الفلسطينيون هؤلاء أخيراً راحوا يستكملون وبلا تردد أو وجل المقومات الفعلية لدولة داخل الدولة. فها هي اتفاقية القاهرة التي رعاها جمال عبد الناصر وفرضها بقوة سحره ونفوذه توفر لهم وجوداً حراً، وبصورة مطلقة في جنوب لبنان، وفي منطقة سميت رسميا " فتح لاند"، وحين تتكرس دولة عسكرية صغيرة في الجنوب، فلن يكون أمامها أي حاجز جدي كي لا تتصل بكل التجمعات الفلسطينية والحليفة في باقي لبنان وعلى وجه الخصوص في المفتاح السحري الذي اسمه بيروت.

كان فريق هام من اللبنانيين يرفض بالمطلق هذا الشكل المسلح من أشكال الوجود الفلسطيني الغريب. وحين انطلق "صوت فلسطين"، صوت الثورة الفلسطينية من قلب العاصمة بيروت، تعمقت المخاوف وأضيف دليل حاسم على أن استيلاء الفلسطينيين مباشرة عبر حلفائهم على الوطن اللبناني دخل طور الاكتمال.

يوسف قزاز "ابو تميم"

حين وصلت إلى بيروت مع رفاقي من كادر الإذاعة في القاهرة وجدت أمامي إذاعة مفتعلة، يرافق صوت المذيع فيها صفير وتشويش يجعل من متابعة الاستماع لها عقوبة قاسية، والغريب في الأمر أنها كانت إذاعة مزاجية تأتي واضحة تماما في بعض المناطق و مشوشة بصورة جزئية في مناطق أخرى، وغير مسموعة في معظم المناطق. إلا أنها أثبتت حضورا قويا في أوساط بيروت وصيدا، أما في الجنوب حيث القوات التي انشئت الإذاعة أساساً من اجل التواصل معهم وتعبئتهم معنويا فقد اكتشفنا أن معظمهم لا يعرف بأن لنا إذاعة في بيروت، عرفت ذلك بمحض الصدفة وهذه حكاية.

تعطلت سيارتنا على مشارف مدينة صور، كنا في جولة جنوبية من تلك الجولات التي كنا نسميها جولات التعايش مع المقاتلين. أرسل لنا القائد الميداني الرائد عبد المعطي السبعاوي سيارة لتقلنا إلى حيث مقر قيادته في بلدة الخيام الحدودية، ونحن على أبواب الخيام بدأ موعد بث إذاعتنا، سألت السائق أن ينقل مؤشر الراديو إليها، أفادني بأنه لا يعرف أين هو موقع "صوت فلسطين"، وقال نحن لا نستمع اليها، احيانا وفي الليل فقط نستمع إلى الإذاعة القديمة التي تبث من القاهرة.

آنذاك قررنا تكليف فدائي الاثير، ونجم الإذاعة الساطع، يوسف القزاز بالتفرغ لمهمة جذب مقاتلي الثورة الفلسطينية إلى الإذاعة والمواظبة على سماعها، واقترح أن يجري لقاءات ميدانية مع القوات وبصورة يومية ويعلن على أجهزة اللاسلكي موعد إذاعة اللقاءات، وأن يعمم على القطاعات جميعا الاستماع للبرنامج اليومي "مع المقاتلين".

خلال أقل من شهر سرت الإذاعة في مواقع الفدائيين في الجنوب سريان النار في الهشيم، وكلما تأخرت الإذاعة عن زيارة موقع من مواقع الثورة كان يأتينا احتجاج ساخط على هذا الإهمال، وبذلك نجحت الإذاعة في الوصول إلى من يحب أن تصل اليه. كان البطل الاساسي لهذه التجربة

هو يوسف القزاز مخترع البرنامج ومنفذ الحوارات اليومية، وصاحب العلاقات الحميمة مع كل مقاتلي الثورة الفلسطينية، وحلفائها من قوات الحركة الوطنية اللبنانية.

حادي فلسطين والخميني وشريط الكاسيت التاريخي

يوم الجمعة، حيث الاسترخاء الطبيعي عند معظم العاملين في الإذاعة ولا أذكر التاريخ بالضبط، كنت جالسا في مكتبي أتابع التحضيرات لبرنامج الظهيرة ،ذلك بعد أن فرغنا من إذاعة الفترة الصباحية، منذ تلك الفترة وأنا استيقظ الساعة السادسة صباحا، حتى لو نمت بعد منتصف الليل، كان استيقاظا إلزاميا تعودت عليه، إذ لابد من إجازة نشرة الأخبار بعد مراجعتها خبراً خبراً، واحيانا سطراً سطراً، كانت النشرة الأولى تُذاع على الهواء مباشرة الساعة السابعة أما الثانية فعلى التاسعة إلا ربعا.

في ذلك اليوم، اقتحم مكتبي رجل قدرت أنه في الأربعينيات، ينتشر على رأسه قليل من شعر رمادي داكن، ويحمل تحت إبطه آلة موسيقية عرفت فيما بعد أنها اصعب الالات وأجملها وهي البزق، كانت الآلة مغطاة بجراب جلدي أسود أما حاملها فكان مزهوا كما لو أنه يضع عصا المارشالية تحت إبطه.

– الأخ نبيل مسؤول الإذاعة، سأل.

– نعم أنا هو، وأشرت عليه بالجلوس.

وبينما يتخذ لنفسه مقعدا، قال معاتبا: يارجل يوجد لفلسطين إذاعة في بيروت، ولا تتصل بملك العتابا والميجانا والشروقي، أبو العلاء، يوسف حسّون.

كانت طريقته في الكلام توحي بفلسطيني شديد الاعتداد بنفسه، وما أن استقرت جلسته على المقعد الجلدي الأسود حتى شرع في تخليص آلته من جرابها، وبدا لي أن لا قوة على وجه الأرض تستطيع منعه من

العزف والغناء، ودون مقدمات راح يدوزن آلته العنيدة، ويسلك أوتاره، وخلال دقائق صدح صوت الحسّون بموال شروقي فإذا به يستولي عليَّ دون مقاومة.

هذا كنز هبط من السماء، يوم جمعة صيفي شديد الحرارة والرطوبة. كان أداءا متكاملا للعزف والنص والغناء من الوهلة الأولى أسرني ببلاغة النص، وسلاسة العزف وعذوبة الأداء، حيث إعطاء معاني الكلمات بلغة الصوت الواعي والذكي والمتموج، حسب مقتضيات إيصال المعنى.

– الله يا أبو العلاء، الله، كم نحن بحاجة إلى هذا النوع من الفن الشعبي الأصيل، اعتذر لك عن المدة الطويلة التي انقضت دون أن نتصل بك ونعمل معك

ضحك أبو علاء من قلبه، وقال الجايات أكثر من الرايحات، قلت: سأعرض عليك مشروعا كبيرا ومهما وربما يكون تجديدا، نحن بحاجة إليه في مجال الغناء الوطني السياسي والتعبوي، وقبل أن أعرض عليك المشروع، أود أن اعرف ماذا تعمل؟ هل هنالك وظيفة محددة غير الغناء؟

فاجأني بالجواب، كنت مهيئاً نفسي لسماع مهنة تتعلق بالأعراس والليالي.

– أنا مدير مدرسة في وكالة الغوث، ارفع الهاتف من فضلك واسأل عني إسماعيل شموط فهو ملك الرسم، وأنا ملك الغناء الشعبي.

وجدتها سانحة للاتصال بالرجل الذي أحب واحترم واعجب به كرائد مميز للفن التشكيلي الفلسطيني. جاءني صوت إسماعيل الهادئ الذي يشبه في عذوبته وعمقه لوحاته المدهشة.

قلت : عندي صديق لك طلب مني أن اسألك شهادتك فيه، ومع أنني أصدق كل حرف قاله، إلا أنني أحب أن أسمع منك بعض الشيء عنه، إنه أبو العلاء، يوسف حسّون.

ضحك إسماعيل واظهر ابتهاجا بالمفاجأة، وقال هذا أهم شاعر شعبي في فلسطين، وبلاد الشام، وقد قمت بتسجيل أغنية مدهشة له بعنوان مرحب هلا. وأضاف:

أحب أن تزورني في البيت وتستمع إلى هذه الأغنية، هذا رجل عظيم والغريب أنكم لم تتعرفوا عليه إلى الآن.

قلت : نعم، وهذا من نواقص الإذاعة الفلسطينية، وأبرز مجالات تخلفها وتقصيرها، لقد أعمى الاستغراق السياسي إذاعتنا عن إعطاء الاهتمام الضروري بالشأن الثقافي، كنا نقدم برنامجا واحدا لا يقترب من مستوى قوة الثقافة الفلسطينية، وكنا نجري لقاءات مع فنانين ومثقفين إلا أن الاستغراق السياسي المباشر والمبالغ فيه وضع الشأن الثقافي في المؤخرة.

– أخي أبو العلاء ان كل ما يصدر عن هذه الإذاعة يتم في سياق الالتزام السياسي حتى أناشيد الثورة، وأخالك تعرفها وربما تحفظ بعضها، كانت تصنع في مطبخ سياسي، لهذا نريد منك أن تتساوق مع هذا الوضع وأن تؤلف وتغني في ذات السياق

أبدى يوسف حسّون تفهما واعيا لما أقول، وأحب إضافة أمر لفت نظري وهو ثقته التي بدت زائدة بنفسه وقدراته، كان شيئا يشبه غرور المتنبي ينز من بين كلماته، ولهجته الفلسطينية القحة: أنا الملك، ومملكتي تبدأ من شَعَب في الجليل وحدودها أفضل الشعر وأفضل الألحان وأفضل الغناء.

– إذا دعنا نبدأ العمل من الآن، قلت.

قال: وأنا جاهز من امبارح، وأطلق ضحكة مجلجلة.

– دعنا نبدأ بأربع مقطوعات تتضمن الأفكار التالية، وسردت عليه أهم المواضيع السياسية التي نعالجها في التعليقات والبرامج، وسألت متى تكون جاهزا

قال: الجمعة التالية.

ساورني شك في قدرته على تأليف أربع قصائد في ستة أيام، وهو مدير المدرسة المستغرق في عمله.

يوم الجمعة التالية، وعلى العاشرة صباحا، وصل يوسف حسّون متأبطا البزق ومعه أحد مساعديه وهو عازف عود. كان المهندسان عبد الله ابو الجبين وهشام السعدي يتناوبان على التسجيل والبث، استدعيت عبد الله وطلبت منه تجهيز الاستوديو للتسجيل ورحت أتفحص النصوص.

بهرتني القصائد الأربع، لا تصنّع فيها ولا تعقيد، كانت بسيطة سلسة عميقة المعنى رصينة المبنى، سألت نفسي كيف سيكون الأمر داخل الاستوديو فيوسف حسّون ملك الشعر الشعبي والعتابا والميجانا عمل في كل مجال إلا الإذاعة.

تم تسجيل الحلقات الاربع مدة كل واحدة منها عشر دقائق، كان صوت حسّون يصلني من الباب المفتوح الذي يفصل الاستوديو عن غرفتي، كنت مع كل دقيقة ازداد إعجابا بعبقرية المغني الشعبي، لم أجد نفسي مضطراً لتعديل ولو حرف واحد، مع أننا وبعد سنوات طويلة من العمل الإذاعي كنا بحاجة إلى من يعدل كتاباتنا وقراءتنا كل مرة، كنت أقول في نفسي: ما هذا الكنز الذي هبط علينا من السماء.

أبديت إعجابي الشديد بإنجازه الفني المتميز، وطلبت منه إعداد مقدمة وختام لبرنامجه الغنائي، لم يستغرق الأمر اسبوعا، في اليوم التالي حضر الحسّون ومعه المقدمة والنهاية.

برنامج كهذا ليس له مذيع لتقديمه، إلا ذلك الفنان المدهش والمميز الذي يغني نشرة الأخبار، ويشدو بالتعليق السياسي ويذوب ويذيبك معه رقة وعذوبة وهو يقرأ أي شيء من "صباح الكلاشينكوف" في عمّان إلى "نداء الأرض المحتلة" من القاهرة، إلى مقدمة "أناشيد الثورة

والوطن" من غيره؟ خالد مسمار، الحاج خالد، الصوت الذي يفيض شبابا وحبا وصدقا.

لم يكن صعبا عليّ اختيار من يقدم بوجود خالد مسمار إلا أن الصعب دائما وأبدا هو اختيار اسم البرنامج.

كنت قد تداولت والحاج خالد في عناوين عديدة ولم يستقر رأينا على عنوان بذاته إلا أن الحسون ساعدنا في حسم الأمر، حين عرض علينا المقدمة التي تبدأ بجملة: "غنى الحادي"، وقبل أن يكمل قلت للحاج خالد هذا هو عنوان البرنامج. بارك الله فيك يا يوسف حسّون، فلقد حسمت جدلا استغرقني وزميلي وصديق عمري ساعات طويلة من الزمن. إذاً، اسم البرنامج "غنى الحادي".

"صوت فلسطين.. صوت الثورة الفلسطينية،

غنى الحادي وقال بيوت،

بيوت غناها الحادي،

سدّو الدرب منين أفوت،

أفوت وأقدر بعنادي، يا هلا بك يا هلا

فوق التل، تحت التل، وبين الوادي والوادي

إن تسأل عنا تندل، وتلقاني وتلقى ولادي".

لحظت أن المقدمة بحاجة إلى تعديل. جملة "غنى الحادي" حين تتكرر بصوت المذيع قد تضعف الإيقاع، إلا أن حسون وفر لنا مخرجا للمرة الثانية من خلال الخاتمة الذي يقول فيها.

"حياكم الله ومرحبا، حي الرجال الغانمين، يا حلالي يا مالي

يللي سمعتو للندا من صوتنا الحر الأمين، يا حلالي يا مالي"

وضعنا الخاتمة في المقدمة ووضعنا المقدمة في الختام، وبصوت خالد مسمار والحسّون وبالكلمات الرقيقة صار لدينا أجمل مقدمة لأجمل برنامج، وكذلك أجمل ختام.

ظل الحسون يعمل دون توجيهات، كان يلتقط بحسه السياسي والفني وموهبته الغزيرة ما يستحق أن يؤلف من أجله قصيدة، كل ما كتب وغنى كان مثالا للالتزام السياسي، وعبر قالب فني راق ومتقن، إلى ان وصل الذروة، برائعته التاريخية التي أذيعت عشية عودة الخميني إلى طهران، تلك القصيدة التي حكى فيها بكل البلاغة الممكنة قصة الثورة الإيرانية، والآمال المعلقة عليها، وقصة التحالف بين ثورة الخميني وثورة فلسطين عنوانها "لله در الخميني".

بعد تسجيلها، وكانت مشتقة من حوار جرى بين يوسف حسّون، ويوسف القزاز، حتى أنني لم أكن أعرف شيئاً عن هذه القصيدة إلا بعد أن استمعت اليها بناء على الحاح القزاز. طلبت نسخ القصيدة المؤداة بإتقان على شريط كاسيت، وتوجهت بها إلى مقر القائد العام. أحضرت السيدة أم ناصر، مديرة مكتب الرئيس، جهاز تسجيل وأدرنا الشريط. أُعجب عرفات بالقصيدة حتى أنه طلب إبقاء جهاز التسجيل على طاولة مكتبه ليسمعها كل زواره وطلب مني استنساخ عشرات الأشرطة، إلا أن الشريط الأهم هو ذلك الذي أهداه إلى الإمام الخميني حين التقاه في قم، حيث كان قائد الثورة الفلسطينية هو الزائر الاول لقائد الثورة الايرانية

يوم حزين

– أنا علاء ابن يوسف حسون!!

– نعم، أنا نبيل

– البقية في حياتك يا عمي، لقد توفي والدي

لم نكن قد سمعنا بمرض أصاب فناننا الكبير، حتى نهيئ أنفسنا لاحتمال كهذا، ومع ايماني بقضاء الله وقدره، إلا أنني سألت كيف حدث هذا؟

– توفي على مكتبه في المدرسة، كان يكتب وهوى رأسه على الطاولة، واكتشف الأمر زملاؤه من المدرسين.

صعقني النبأ لقد مات يوسف حسّون، ابن شعب، هوى وذوى على نحو مفاجئ، سقطت واحدة من سنديانات فلسطين عميقة الجذور بالغة الخضرة صلبة السيقان والأغصان، وارفة الظلال. مات الملك الذي كان شديد الاعتزاز بموهبته وبانتمائه وشخصه، سيفتقد الأثير جديدا يؤديه يوسف حسّون بالغناء الجميل وببلاغة النص العبقري البسيط، بوسع آلات التسجيل أن تديم الأغنية على موجات الأثير إلى الأبد، إلا أن الذي انقطع هو التجدد. وإبداع المغني الذي مات.

كان الحسّون مؤرخا جميلاً لأحداث الثورة في أهم المفاصل، وكان أحد من ضبطوا إيقاع الرأي العام بالموسيقى والغناء.

أبلغت الرئيس عرفات بوفاة الحسّون كان عرفات يستقبل كل يوم نبأ فقد عزيز عليه وعلينا، إلا أنه صُدم بالنبأ، وطلب مني القيام بكل ما يلزم لوداعه وداع مبدع ورائد كبير.

في ذكرى الأربعين أقمنا للحسّون مهرجانا تأبينيا مميزا كان الجمهور من عشاقه من الفلسطينيين والعرب، ممن يرتدون الحطات والعقل ويلبسون القنابيز والأحزمة العريضة، ويلتفون بالعباءات السوداء المطعمة ياقاتها بخيوط القصب.

كانت القيادة الفلسطينية وحليفتها اللبنانية تجلس في القاعة، وكان تأبين أبو العلاء مختلفا فلا خطب ولا شعارات، ولا حديث في السياسية، بل قصائد شعبية أداها تلاميذه ومريدوه وزملاؤه من سادة الشعر الشعبي، من سوريا ولبنان وفلسطين ومصر، كان مهرجانا يليق بالملك وكان غيابه إيذانا بغياب شمس الثورة عن ربوع لبنان.

بعد وفاة حادي فلسطين يوسف حسون، واصل الفنان الشعبي ابو عرب "الحداء" بلا انقطاع، كان ذلك عبر موجات اثير الإذاعة الفلسطينية، وفي المناسبات الوطنية والمخيمات والمنافي وعلى ارض الوطن وحتى كتابة هذه السطور مازال ابو عرب يغني وسنوات عمره ال ٨٣ تزيد صوته حلاوة وأغانيه صدقا.

الجزء الثاني

أيام الحب والحصار

قصة اذاعة الثورة الفلسطينية في بيروت

أثناء الاجتياح الإسرائيلي في العام ١٩٨٢

تقديم

هذه المجموعة قصص تسجيلية لأحداث وقعت في لحظة ما خلال فترة حصار بيروت وقبيله، صيف العام ١٩٨٢.

انها أشبه ما تكون شريطا ممغنطا بالغ الحساسية في التقاطه أدق الهمسات وأرق الاحاسيس. خلاصة تجربة مباشرة وحصيلة معاناة ساخنة تجمع بين المعاينة الواعية والمعايشة المرهفة لصاحبها "نبيل"، الذي يتميز بها إلى جانب ما يتميز به من دقة ملاحظة وسرعة استشرافها ببديهة حاضرة وشفافية نافذة.

عندما شرعت في قراءتها بعد الساعة الثانية من ذلك الصباح الساهر لم يكن في خلدي انني سآتي عليها كلها في جلسة واحدة. ولكني ما ان كنت انهي سطرا منها حتى اجدني مشدودا إلى السطر الذي يليه، وما اقلب صفحة حتى اتعلق بالتي تليها، وما اترك فكرة أو حدثا حتى ادخل مشوقا إلى ما يليه لاستكشاف تساوق الخواطر التي كانت تنساب في تداعيات سلسلة يجذبك اليها انها تحكي قصة ما، لعلها ان تكون قصتك انت لو كنت لحظتها في ذلك المكان الذي وقعت فيه. هل اقول – ان وصفتها – انها يوميات اذاعة؟

ام انها يوميات اذاعية؟

أم هي يوميات إذاعي؟ – إنها كل ذلك معاً.

لأنها تجمع ما بين هذا كله في مزيج رقيق منسق تمكن "نبيل" – ببراعة – من سكبها في سبيكة واحدة رغم انها تبدو شعابا مرجانية تضرب في اعماق بحر متلاطم.

– ولعل اكثر ما قربني إلى حروفها أمران، انها. أولا – تتحدث عن لحظات عشتها غائبا، بعيدا، ثم انها تتحدث عن الإذاعة.

وللإذاعة عندي مذاق ولون ورائحة ورونق، لا يجرؤ على منافستها لدي فيما ذكرت شيء آخر، للإذاعة عندي مذاق تمتزج فيه كل الطعوم المحببة، ولونها، هو ذلك اللون الذي يجمع كل الوان الطيف ويضيف اليها الوانا لا يراها إلا الملهمون.

ورائحتها هي تلك الرائحة التي يختلط فيها تراب الارض بقطرات المطر التشريني ثم يفوح منها عبق زنابق الغابر،

اما رونقها فهو الرونق الفذ لذلك العالم السحري: عالم يمتد بين الميكروفون وذلك الصندوق ـ صغيرا كان أم كبيرا ـ الذي يطرق برفق اسماع الناس، ليقول لهم شيئا قادما عبر الأثير – لرب من يقول، انه غزل بالإذاعة.

وأقول: نعم، ولم لا؟

وللإذاعة الفلسطينية تحديدا فهي التي اعطيت من عمري اغلى السنين، ومن عصبي ادق النبض، ومن فكري عصارة الذهن، ومن جهدي حصيلة الشباب، وهل تكون مجموعة ذلك كله شيئا آخر، غير الحب؟

ثم اني بعد هذا، اعتبر هذه الحروف التي سكب فيها "نبيل" جزءا منه تكريما للإذاعة ولمن عملوا فيها، وانا اعرف جيدا ما الذي يعني "العمل الإذاعي" أو "العمل في الإذاعة" – كما أدرك جيدا ما الذي يستحقه هذا العمل من تكريم وتقدير وتخليد،

– ولعلها ان تكون خطوة على الطريق إلى الحق والخير والجمال، والانتصار.

فؤاد ياسين

الجزائر ١٩٨٣/٢/٢١

فؤاد ياسين، مؤسس "صوت العاصفة" ١٩٦٨
مدير إذاعة صوت فلسطين حتى ١٩٧٣

تمهيد

ان الثوري الحقيقي مقود بمشاعر حب عظيمة. هذه كلمات شهيرة للقائد الثوري العظيم الشهيد أرنستو تشي غيفارا، ولقد ادركت صدق المعاني التي تنطوي عليها هذه الكلمات، اثناء التجربة الكبرى في بيروت، حيث لم اكن اجد اي تفسير للعديد من الظواهر الفذة النادرة، سوى الحب، الذي تمتلئ به نفوس الثوار، فيقاتلون بدافع منه حتى الاستشهاد.

ولقد ادركت كم هم ثوريون اولئك الذين شاءت الاقدار ان اعمل معهم في اذاعة صوت فلسطين صوت الثورة الفلسطينية. لنجتاز معا اياما عاصفة خطرة ولنضع معا تحت جحيم هذه الايام تجربة بالغة الأهمية فيها تجليات إنسانية وإبداعية متميزة رأيت أن أحاول تسجيل ومضات منها على صفحات هذا الكتاب.

لقد كانت تجربة غنية، لا استطيع الزعم بقدرتي على تسجيلها من كافة جوانبها ووجوهها وكل ما هو مطبوع على صفحات هذا الكتاب، هو استرجاع من الذاكرة لصور حية ما اظن انها يمكن ان تمحى يوما. وإنني الآن - في هذه اللحظات التي اكتب فيها - اتذكر انني في كثير من المواقف الصعبة أو المثيرة رجوت الله أن أعيش، ليس رغبة زائدة في الحياة، مع ان مثل هذه الرغبة غريزية ومشروعة، ولكن من اجل ان تتاح لي امكانية تسجيل هذه المواقف، أو امكانية ان اكون واحدا من شهود التاريخ.

وحين بدأت الكتابة تركت نفسي على سجيتها، وسكبت من ذاكرتي بعض ما هو محفور فيها بعمق، فلم اتوقف عند تحديدات زمنية أو

مكانية فلست مؤرخا يسعى إلى توثيق مرحلة زمنية حفلت بأحداث كبيرة، فما أنا إلا إنسان يحاول أن يرصد نبض تجربة انسانية يتداخل فيها الحب مع الخطر، والأمل مع اليأس، والنجاح مع الاحباط.

***

"نِعَمْ فارس"، تملأ صباحنا بالبهجة والأمل والثقة، توزع ابتسامتها الجميلة على كل الزملاء، وتطير مثل الفراشة إلى مواقع المقاتلين، وبعد ان تغادرنا بساعات قليلة، يأتي من يقول لنا، لقد تمزق جسد نِعَم بفعل قذيفة مباشرة.

تتوقف اقلامنا عن الكتابة، ننفجر بالبكاء، نمسح دموعنا، ونعود لنكتب من جديد، وفي داخلنا حارس لا يكف عن تذكيرنا، بأنه ليس من حقنا ان نتمادى في الحزن، لأننا نكتب للناس، ونتحدث للناس، ومهمتنا ان نبقي على نافذة الأمل مشرعة حتى النهاية!

أجل،

ليس من حقنا ان نتمادى في الحزن، فلسنا نكتب مذكرات شخصية، ولكن من واجبنا ان نتمادى في الحب والأمل هذه معادلتنا في العمل والحياة داخل ذلك البيت الصغير الذي اسمه الإذاعة.

وكلمة الأمل هنا تبدو كما لو أنها مجرد إنشاء. فمن اين تأتي بمسوغات الأمل حين يكتمل الحصار حول بيروت. وننظر للبحر فلا نرى غير البوارج الاسرائيلية وننظر للسماء فلا نرى غير الطائرات الإسرائيلية، وننظر للجبل ولا نرى غير مئات فوهات المدافع والراجمات مصوبة نحونا،

لقد كنا نفتش بصعوبة عن اي مصدر للأمل، فمنذ الأيام الاولى قررنا في الإذاعة ان نبتعد بمستمعينا عن منزلق الحسابات العادية التي تقود إلى اليأس، وشرعنا في تعبئة الجمهور والمقاتلين نحو اهداف واقعية، اطالة امد المعركة، وإيقاع اكبر قدر من الخسائر في صفوف الأعداء،

وهذه اهداف واقعية ممكنة، ولقد تم تحقيقها، وحين زارنا ياسر عرفات للمرة الاولى واجتمع بمعظم كادر الإذاعة لمدة ثلاث ساعات، دار حوار غني على ضوء الشموع حول فكرة واحدة، وهي، ما هو افق معركتنا، وكانت وجهة نظر عرفات في هذه المسألة بالغة البساطة والعمق،

"لقد قررنا الصمود والمواجهة، ورفضنا عروضا للخروج سالمين تحت راية الصليب الاحمر. لسببين رئيسيين، الأول: سياسي، من واقع ادراكنا ان حرب لبنان يجب ألا تكون آخر المطاف في مسيرة الثورة، وإنما يجب أن تتحول إلى محطة على الطريق، لذا يجب ان تطول هذه الحرب، حتى يدفع العدو ثمنا باهظا، وتتفاقم تفاعلات هذه الحرب على نحو فعال داخل المجتمع الإسرائيلي، وذلك سيشكل مناخا جيدا لاستئناف الصراع والاستمرار فيه،

اما السبب الثاني، وهو معنوي، فمن واجب هذه الثورة، ان تقدم لشعبها الذي ينوء تحت أثقال التآمر والتواطؤ والخذلان. زاداً معنويا من البطولة المتفردة تتغذى عليه الاجيال وتستمد منه حوافز للمواصلة، فمهما يحل بنا نتيجة هذه الحرب القاسية، وهي على كل حال مفروضة علينا، فان ما سنجنيه من الصمود سيكون كبيرا".

كانت المعادلة واضحة بالنسبة لنا، وبالتالي لم نخطئ "حسب اعتقادي" في مخاطبة الناس ضمن حدود واقعية، وكان جهدنا ينصب حول هدف مركزي،هو اقناع الناس بأن صمودهم له معناه السياسي والأخلاقي، الكبير، وانه الخيار الوحيد الذي يجنب الوطن والشعب اخطارا مصيرية، ولقد نجحنا في ذلك إلى حد بعيد، وظلت نوافذ الأمل مفتوحة في جدار الحصار وادركنا بوعي ان الأمل لم يكن مصطنعا حتى لو بدا لنا في لحظة ما انه كذلك.

***

مرة واحدة اتصل بي جنرال الثورة، سعد صايل ابو الوليد، حيث اصدر لي تعليمات بإذاعة خبر هام يتعلق بلقائه مع احد الاخوة الايرانيين لا

اذكر اسمه، ولكن صفته ملفتة للنظر فهو قائد لواء محمد رسول الله، وابلغني ابو الوليد، ان اضع في الخبر عبارة بالغة الأهمية وهي انه دار في اللقاء تدارس السبل التي تتيح للمتطوعين الايرانيين المشاركة في معركة الدفاع عن لبنان وفلسطين والأمة الإسلامية، واضيف على الخبر تصريحا لاحد قادة الثورة الاسلامية في ايران. اعلن فيه انه بصدد جمع مائة الف متطوع للزحف بهم نحو لبنان لنصرة المظلومين ضحايا العدوان من اللبنانيين والفلسطينيين.

ثم اتبعنا هذا الخبر، بتعليق اذكر انه بدأ بعبارة أهلا بالأشقاء الأوفياء، أهلا بفرسان الثورة الإسلامية، أهلا بأبناء الخميني، أهلا بأحفاد علي والحسين، اهلا بمن يجسدون الثورة الحقيقية، الخ.

لقد كان هذا الخبر هو خبر بيروت كلها في ذلك اليوم حتى ان كثيرين بدأوا يتحدثون عن ذلك الخلل الكبير الذي سيصيب ميزان القوى وسيكون في غير صالح الاعداء. امتلأت نفوسنا بالأمل غير اننا نسينا الموضوع برمته خلال ايام قليلة، وحين كنا نشهد انتحار أمل ما، كنا نحس بالأسى غير اننا كنا نتذكر كلمات قالها لنا ياسر عرفات بأسلوب شاعري مؤثر، "اننا نراهن على انفسنا ودمنا، فهو اساس رصيدنا".

***

كانت الإذاعة بمثابة اعلان يومي عن ان الثورة بكل ما تعني مستمرة، ولقد حاول الاسرائيليون باستماتة ظاهرة، تدمير الإذاعة، نجحوا في المرة الاولى حين كانت اذاعتنا الرئيسية توجه ارسالها من مرتفع سيروب قرب صيدا، غير انهم لم يتمكنوا منا طيلة فترة البث على الإذاعة الاحتياطية المتنقلة، وبعد الخروج من بيروت قرأت في احدى الصحف العربية، تصريحات لقادة عسكريين اسرائيليين تفيد بأن اذاعة صوت فلسطين، كانت على رأس اولويات الأهداف المسجلة على لوحة مهمات الطائرات الإسرائيلية.

وحين قرأت الخبر، استرجعت من الذاكرة، وقائع ذلك اليوم الرهيب الذي سقطت فيه حول الإذاعة وعلى ابوابها عشرات القذائف، لقد كنا آنذاك في قبو يقع خلف السفارة الأردنية، كان التركيز واضحا على تلك النقطة رغم عدم وجود اي هدف عسكري هناك. وقد نجونا من الموت بمحض الصدفة واغلب الظن ان الاسرائيليين تأكدوا من وجودنا في ذلك المكان، لأنهم استمعوا مثلنا إلى اصوات الانفجارات تصاحب صوت المذيع، وفي تلك اللحظات، قررنا انا وزميلي طاهر ان ننقل الإذاعة على الفور إلى مكان آخر مستغلين فترة التوقف عند الظهيرة.

لكن المهندسين عارضوا فكرتنا واقترحوا ان يتم النقل في الليل، وحدث ذلك ولقد فوجئ معظم العاملين في الإذاعة بالانتقال إلى المقر الجديد، وصار بوسعنا ان نسخر من الاسرائيليين الذين واصلوا قصف الموقع القديم دون ان يسمعوا هذه المرة صوت قذائفهم.

لقد انتقلت إذاعتنا خمس مرات طيلة ثلاثة اشهر. وكم كانوا رائعين اولئك المهندسين الشبان جهاد، ثائر، رياض، احمد حسن، ابو حسين الذين ما كانوا يفرغون من تركيب معدات البث في موقع جديد، حتى ينتشروا جميعا في ارجاء بيروت بحثا عن الموقع القادم، وحين كان مطر القذائف ينهمر على بيروت لم تكن تشاهد سواهم فوق اسطح العمارات يمدون هوائيا احتياطيا، أو يستكشفون ارتفاعا مناسبا لنصب معداتهم.

***

الإذاعة محببة حين يلتقطها المواطن من جهاز الراديو، ويستمع منها إلى اغنية جميلة، أو خبر جديد أو تحليل ذكي للموقف السياسي. ولكن حين يعرف المواطن ان الإذاعة تنطلق من شقة مجاورة أو من قبو العمارة التي يسكنها، ففي تلك الحالة، لا بد من كثير من الخوف والقلق، فالإذاعة تدعو الطائرات للقصف!! لذا، وبينما كنا نتنقل من مكان لآخر، كنا نواجه مواقف صعبة من الجيران، حتى ان بعضهم كان يحمل اولاده ويقدمهم لنا قائلا بقدر من الحرقة والمرارة والاستعطاف، انظروا، ما ذنب هؤلاء، حتى يسحقوا تحت القذائف.

كنا نحس بأن هؤلاء الناس، محقون في موقفهم، وأن مخاوفهم مبررة، غير اننا لا نستطيع وقف الإذاعة لمجرد هذا السبب – رغم وجاهته – ومع ذلك كنا نحاور الجيران، ونحاول تطمينهم إلى ان الإذاعة المستهدفة موجودة في مكان آخر وان كل ما يجري في هذا المكان هو مجرد إعداد للبرامج والأخبار، وعلى مضض كان الجيران يستسلمون لوجهة نظرنا.

وإني أرى من واجبي وإنصافا للحقيقة أن اسجل لأهلنا من اللبنانيين، خصائص يتميزون بها، وهي الحمية والكرم والتمسك بالتقاليد الاخلاقية الاصيلة فحين كان المواطنون يبدون مخاوفهم المشروعة من وجود الإذاعة قرب منازلهم، لم ينسوا لحظة واحدة واجباتهم كجيران، يقدمون القهوة للضيوف الجدد، ليبدأوا بعد ذلك التفاعل الانساني العميق وتنشأ الصداقات الحميمة التي ما زالت كلها في حياتنا وليس فقط في ذكرياتنا.

من هم هؤلاء البشر الذين يحتشدون في غرفة ضيقة ويضعون معزوفة يومية مدتها ستة عشر ساعة، وكل واحد منهم يدرك بوعي عميق انه في ظرف الموت فيه هو القاعدة، والحياة هي الاستثناء والنجاة غالبا بمحض الصدفة، انهم مجموعة من الاشخاص رجال ونساء،منهم من جاء من صلب حركة فتح ومنهم من ينتمي إلى حزب سياسي يساري. ومنهم من يعتنق الفكرة القومية، ولكنهم جميعا في حصار بيروت، وجدوا انفسهم ينتمون إلى حزب جديد هو حزب المصير المشترك.

لقد ذابت الحواجز التي كانت في الظروف العادية اشبه بقلاع من الفولاذ. وتلاشت المسافات التي كانت تفصل بين الجذريين والبراغماتيين، وصار بوسعنا جميعا ان نتحاور بهدوء، بعيدا عن التشنج والتعصب الذي كان سيد حواراتنا ونحن نعيش في جزر الاسترخاء التي كنا نجدها بين وقت وآخر.

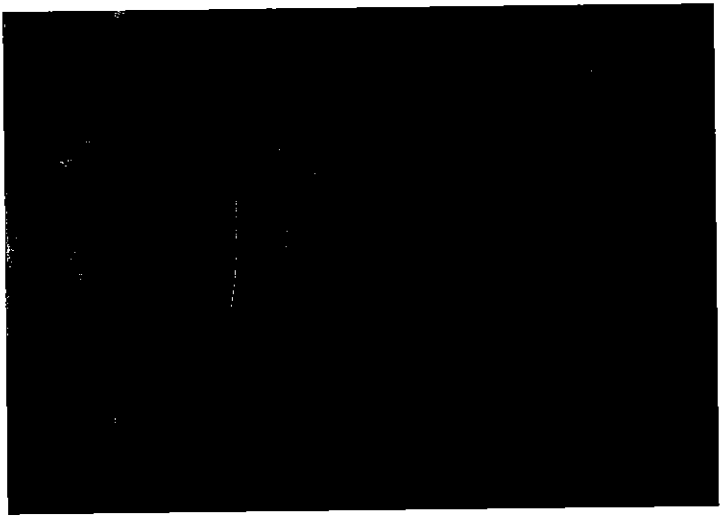

عدد من كادر الإذاعة في بيروت عام ١٩٨٠

صوت فلسطين،

صوت الثورة الفلسطينية

– الرابع من حزيران، عام ١٩٨٢، الوقت ظهرا بعيد الثانية بقليل، غرف وأروقة الإذاعة في حي الفاكهاني ما زالت تغص بالعاملين فيها وبزوارهم على غير العادة في مثل هذا الوقت من النهار وفي ذلك الكيلومتر الحبيب إلى قلوب من عاشوا فيه.

– الفاكهاني الخطر حتى الموت في كل لحظة، والعذب حتى اللهفة على كل حجر فيه، كان عالمنا بل كان عالما لجميع اولئك الذين ضاقت بهم بلدانهم على رحبها. لم تتسع لهم غير الزنازين والمنافي والمقابر، فاتسع لهم على ـ ضيق مساحته ـ ولم تتسع لآلامهم وطموحاتهم وأحلامهم أيضا، وجنباً إلى جنب كان ينطلق "صوت فلسطين" مع مكبرات الصوت التي تدعو لتظاهرة تضامن أو لتشييع شهيد أو احتفال بذكرى انطلاقة هذا الفصيل أو ذاك، وكانت تتلاحق صور الشهداء مع ملصقات العدد الجديد من مجلة "الرصيف" التي ابتكرها جملة وتفصيلا الشهيد علي فودة.

– الثانية ودقائق، السربيوني يكتب حلقة لبرنامج "صباح الخير" عن نكسة الخامس من حزيران، أمل، تراجعها، نِعَم في الزاوية تراجع اقوال الصحف، بعض الضيوف يطالعون جرائد منثورة على طاولات المحررين، يوسف يحمل صخبه الأليف في ردهات المبنى، كان ثمة ضجيج انساني حي، يتحرك باتساق غير متوقع، وفجأة انفجر كل

شيء، وانقلب الهدوء الأليف إلى حركة صاخبة، مرتعشة، فالقصف كان على بعد مئات الأمتار، وشعر الجميع وكأن البناء قد تحول إلى ركام.

كان مشهد الاطفال والنساء والحوامل منهن وهم يتحاملون على انفسهم للوصول إلى ما يتصورونه ملاذا، يثير المرا، لكن الموت القادم من الجو، استمر وبلا انقطاع يذبح الهدوء البريء موقعا في المدينة الرياضية، الملاصقة للفاكهاني، وما حولها عشرات القتلى والجرحى، وهكذا دخلت بيروت رحلة الموت والتحدي من اوسع الابواب وبلا رحمة.

يوم السادس من حزيران عام ٨٢ وعند حوالي الساعة الواحدة ظهرا توقفت اذاعة صوت فلسطين. كنا في ذلك الوقت قد اعددنا نشرة اخبارية فيها عرض للموقف السياسي والعسكري حيث كان القصف قد بدأ قبل يومين. وكنا جميعا نترقب عملية الاجتياح الشامل:

كان تقديري ان سبب التوقف هو القصف الاسرائيلي غير ان النزعة الانسانية للتفاؤل صورت لي ولو بنسبة ضئيلة احتمال ان يكون السبب مجرد عطل فني كتلك الأعطال التي كنا نعتذر عنها بين وقت وآخر، ولقد بادرت منذ اللحظة الاولى للاتصال بالقسم الهندسي لمعرفة حقيقة الموقف، ومعالجة الخطأ الفني، وفي نفس الوقت شرعت وزملائي في الإذاعة بإعداد المحطة البديلة، التي هي عبارة عن سيارتين كبيرتين، تحملان اذاعة كاملة بقوة عشرين كيلوات.

ومع رغبتي في ان يكون ما حدث للمحطة الرئيسة . ذات الخمسين كيلوات . مجرد خطأ فني، إلا إنني بدأت التعامل مع الوضع الجديد على اساس ان الإذاعة الرئيسية قد توقفت تماما عن العمل. ولا بد من اعداد العدة لعمل اذاعي في ظروف بالغة الصعوبة مع التركيز على حقيقة مزعجة وهي ان الطائرات الاسرائيلية التي استطاعت قصف المحطة الرئيسية يمكن ان تفعل نفس الشيء مع المحطة البديلة.

(لقد شعرت بالرعب لمجرد تخيل اننا سنخوض حربا كبرى، بلا إذاعة).

ودون عرض التفاصيل المثيرة لصعوبة الاتصال بالمحطة المتوقفة وما مر علينا من ساعات غموض واضطراب في تحديد سبب التوقف، فقد عرفت اخيرا أن لا أمل في تشغيل المحطة الرئيسية، لأنها دمرت بالكامل بفعل غارات جوية مكثفة.

***

– كنت امضي معظم الوقت في مقر العمليات المركزية. وكان زميلي طاهر العدوان نائب مسؤول الإذاعة يدير العمل المباشر من موقع (٩٥) الذي هو مقر الطوارئ للإذاعة. ولقد احسست بقدر من التوازن النفسي والارتياح حين ابلغني طاهر ان لدينا الآن محطتين جاهزتين للعمل – إحداهما بقوة كيلوات واحد – وتكفي لتغطية منطقة بيروت وبعض الجبل والأخرى بقوة عشرين كيلوات. لم اكن متأكدا إلى اي مدى ستصل. ولكنها على كل حال افضل بكثير من لا شيء. اذكر ان الاخ ابو عمار طلب مني تقديم تقرير حول (وضعنا الاذاعي الآن) مع عرض عدة اقتراحات تؤمن تجاوز كارثة توقف المحطة الرئيسية، وأمر عددا من الاخوة الضباط بتقديم التسهيلات الضرورية لتأمين مكان آمن للإذاعة المتنقلة.

وأثناء مناقشة على اعلى المستويات لوضعنا الإذاعي، اقترح احد الأخوة أن أتوجه إلى العواصم العربية بغية الحصول على محطة بديلة ولو من ضمن الاذاعات العربية القوية المسموعة، فاعتذرت عن قبول هذا الاقتراح، وقدمت اقتراحا بديلا وهو ان يُجري اخوتنا القياديون المتواجدون خارج لبنان، اتصالا مع من يشاؤون من العرب لافتتاح محطة أو برنامج جديد، وقد أُخذ باقتراحي وعلمت فيما بعد أن احداً لم يستجب،

– بدأ العمل على المحطتين البديلتين بعد عشر ساعات من التوقف، ولن انسى تلك اللحظات التي استمعت فيها إلى رواية شاهد عيان عما حدث لمحطة الارسال الرئيسية التي تقع فوق مرتفع اسمه "سيبروب" بالقرب من مدينة صيدا، كان الجمهور عندنا يستمع إلى اذاعتنا عبر

آلاف اجهزة الترانزستور، وكان البعض يخرج إلى اسطح العمارات العالية رغم القصف الشديد لمشاهدة لوحة حية مليئة بالصور، تنطوي على صراع مرير بين صوت فلسطين المنطلق عبر الأثير من خلال هوائي مرتفع فوق الجبل وبين الطائرات الاسرائيلية التي تعاقبت غاراتها عليه بشكل كثيف ومتواصل، كانت لحظات مثيرة حقا.

فالجمهور الذي يستمع للإذاعة يعرف أن الصوت الذي يصل عبر الراديو ينطلق من تلك النقطة بالذات، وليس كل الجمهور يعرف تفاصيل العمل الإذاعي، والفرق بين الاستوديو ومحطة الارسال، فمعظم الناس يعتقدون ان الإذاعة كلها بمهندسيها ومحرريها ومذيعيها، يتواجدون الآن تحت القص، وهذا ما اضفى عاملا استثنائيا للإثارة والاهتمام ورصد نتائج المعركة من خلال نبرة المذيع وقوة تدفق المارشات العسكرية والأهازيج الثورية.

كانت صيدا وجوارها في تلك اللحظات، تسمع صوت فلسطين، وتترقب بقلوب منفطرة عملية قتل هذا الصوت. وبين الغارة والأخرى كان الناس في صيدا وعين الحلوة والمية ومية، يحبسون انفاسهم انتظارا لما هو قادم. وكانت تصدر صيحات التضامن: الإذاعة صامدة، حيا الله الشباب، الله يسلم. وقبل ان يسمع الناس صوت الانفجار المتزج بنعيب الطائرات المغيرة في سماء الجنوب، توقفت الإذاعة، وساد الصمت الحزين واطبق على صدور مستمعينا.

– انتظم العمل في "إذاعتنا" البديلة ضمن الوضع الجديد، واحتشدت الكوادر في ملجأ (٩٥) وبدأ يومنا الاذاعي برسالة موجهة للمقاتلين بصوت الأخ أبو عمار، وأقلعت الإذاعة على أمواج الأثير معلنة أن حربا اشرس من كل ما سبقها، تشتعل الآن على ارض لبنان، وان الصمود الشعبي المسلح هو ضمانة الاستمرار. وقلنا في أول تعليق إذاعي: إن أفق معركتنا هو استمرار المواجهة، وإيقاع اكبر قدر من الخسائر في صفوف المعتدين.

في اليوم التالي، انضم إلى جهاز الإذاعة عدد من الكوادر الجديدة ولقد واجهنا أزمة حقيقية في تأمين مكان ملائم للجميع. لم نجد سبيلا إلى

حلها سوى الانتشار في عدة مواقع، وتنسيق الاتصال بين هذه المواقع والمراكز على اساس ان وسائل الاتصال المتوفرة في تلك اللحظة، وهي التلفون والسيارة وجهاز اللاسلكي وكلها عرضة للدمار في أية لحظة. واتفقنا على ان نتناوب عملية جمع المواد وتزويد المركز بها ولو كلف الأمر ان نمشي خمسة كيلومترات "في النقلة الواحدة"، ولقد وجدت نفسي امام موقف جديد لم يسبق ان واجهته طيلة حياتي الاذاعية وعناصر هذا الموقف الجديد هي التالية:

- اضطراب وسائل الاتصال العادية واحتمال انقطاعها في أية لحظة.
- تواجد حشد كبير من الكوادر معظمهما لم يشارك في العمل الاذاعي قبل الحرب وكل واحد من هؤلاء، له اجتهاده السياسي الذي قد لا يتطابق مع خط الإذاعة وأسلوب تناولها للأحداث.

ولقد تعاملت مع هذه العناصر المستجدة على النحو التالي:

- حل معضلة الاتصال بالطريقة التي اشرت اليها.
- بالنسبة للطيران، لا مناص من تعزيز روح التحدي والتعود على الخطر مستفيدين قدر الامكان من وهم ان الملجأ يكفي ولو نسبيا لاتقاء الموت. ولكن ضربة كلية الهندسة ودمارها المروع ازالا هذا الوهم نهائيا من نفوسنا جميعا، وبقي عامل النبل الثوري المحرك الدفين الاقوى.

أما الموضوع الاكثر صعوبة، فقد تمت معالجته باجتماع سريع وضعنا فيه الخط السياسي للإذاعة.

أولا: الاتفاق على تحديد حجم المعركة الراهنة. وهي باختصار معركة غير عادية، ينتظر ان تطول على نحو لم يسبق له مثيل، وان تكون من اشرس المعارك التي تواجهها الثورة في تاريخها، وعلى هذا الاساس لا بد من رفع مستوى التعبئة عبر الإذاعة إلى حدودها القصوى.

ثانيا: إن كثافة الاجتياح الإسرائيلي، واستخدامه الاسلحة كافة بما فيها جميع المحرمات، واحتمال ان تصل المعركة إلى قلب بيروت، يرتب علينا نمطا مختلفا في المعالجة فنحن مثلا معرضون لأن نخسر كل يوم موقعا جديدا، لذلك يجب ان يكون واضحا لدى جميع المعلقين والمذيعين كيفية الاعلان عن سقوط اي موقع بما يجنبنا محاذير ايقاع الجمهور في دوامة الارتباك والإحباط والانهيار النفسي، ويضمن لنا خلق جو من الثقة بالإذاعة والتعامل مع الحقائق بثبات.

يتعين على كل العاملين في الإذاعة ان يستوعبوا الحقائق وان ينقلوها للجمهور بأسلوب ذكي، ولقد اتفقنا على اطار عام للمعالجة، وهو التركيز على الشواهد الحية التي تجسد أهمية هذا النوع من المواجهة، مع الحرص على ان تستند هذه الشواهد إلى اعترافات العدو، أو تقارير الاطراف المحايدة. وموضوعيا لم يكن بوسعنا كقوات الثورة من حيث عددنا وتسليحنا، ان نهزم الجيش الاسرائيلي المسلح حتى الاسنان بأحدث المنتجات الحربية الأمريكية، لكن علينا ان نقرر شكل المواجهة، بأعصاب باردة قدر الامكان. تنزع الهالة المفزعة عن وجه الغزاة وآلتهم الحربية، وتجعلنا ومعنا شعبنا – نتخذ قرار البطولة الواقعية، بتحد اخذ في بعض الوقائع شكل الاسطورة.

ثالثا: ان حشدا من الإذاعات المعادية الناطقة باللغة العربية ـ ومنذ اليوم الأول ـ وأبرزها صوت اسرائيل كان يبث في بداية الحرب بلا توقف، وصوت لبنان الكتائبي الذي كان بمثابة المصدر الأخباري والاستخباري للإذاعة الإسرائيلية – كانت هذه الاذاعات – تنفذ خطة نفسية مركزة، وبالتالي فعلى اذاعتنا مواجهة هذه الحرب، والرد على مزاعمها وكمائنها، بأسلوب مقنع دون الانجرار إلى دائرة الدفاع المباشر عن النفس، وإنما باعتماد الدفاع الهجومي.

فمثلا حين روجت اذاعة صوت لبنان الكتائبية، لخبر مفاده انهيار القيادة المشتركة، واستشهاد عدد منها، عالجنا الموقف، بإذاعة تصريح رسمي قصير، ينفي هذا الخبر، وقد تم تعزيز هذا التصريح، بتعليق اذاعي تم فيه شرح اسباب لجوء العدو إلى مثل هذه الأخبار، والسبب الرئيسي هو افلاس الغزو في احداث الانهيار مما يحمل قادة الغزو على اللجوء إلى الأكاذيب، ومن اجل الاجهاز على هذا النوع من الحرب النفسية، اجرى مندوب الإذاعة لقاءات مع القادة الذين زعم انهم قتلوا، وبهذا الاسلوب في المواجهة سجلنا نقطة ثمينة في مرمى الإذاعات المعادية مما خلق جوا شعبيا ايجابيا لصالحنا، وسلبيا تماما تجاه معظم الأخبار التي كانت تبث من الاذاعات المعادية.

رابعا: ان طبيعة المعركة لا بد وان تنعكس بشكل واضح على الخط العام للإذاعة لكي لا توقع الجمهور في مأزق ان ما يجري هو معركة مصيرية، لو خسرناها، انتهت الثورة، وسحقت القضية، كان حتميا بالنسبة لنا ان نظهر أهمية المعركة مع التركيز على التوجهات السياسية العامة، التي تجسد استمرار الثورة والقضية.

فكان لا بد ونحن في اقسى الظروف، من التحدث بهدوء وثقة عن مبادئ ثورتنا، وعمق قضيتنا في الوجدان العربي والعالمي، ولقد حرصنا بالفعل على جمع كل التصريحات والإشارات الصادرة عن الجانب المعادي، التي يفهم منها بوضوح ان الثورة مستمرة ودعم ذلك بوقائع حية مثل مقاومة شعبنا في الوطن المحتل، والتفاعلات السياسية التي تحدث على الصعيد الدولي، وتؤكد بشكل حاسم ان حركة الشعب الفلسطيني مستمرة، وان قيادة منظمة التحرير ستبقى في قلب الأحداث، وان القضية الفلسطينية ستزداد رسوخا على جميع المستويات. لقد كان بديهيا ان نتحدث عن رؤيتنا الواضحة للسلام العادل، وألا نرتهن للحرب والحصار وانعدام التكافؤ، بل لا بد من زرع بذور المستقبل انطلاقا من ان الثورة مستمرة، سواء كسبت المعركة أو تراجعت إلى مواقع جديدة.

لقد كان الجميع مستوعبا تماما لهذه الحقائق التي تشكل بمجموعها الخط العام للإذاعة، لذا لم نكن بحاجة للرقابة على المواد المكتوبة وتسنى لنا ان نعبر هذه المعركة بأقل قدر من الأخطاء.

***

كان يوسف قزاز وصالح هواش، هما المذيعان المناوبان للفترة الصباحية التي كنا نبدأها عند السابعة وتستمر حتى الحادية عشرة، ومع أن يوسف كان متسلحا بتجربة ثماني سنوات من العمل الاذاعي المتواصل، ومعظم تجربته كانت في زمن الحرب، إلا انه كان بحاجة إلى من يذكره بأهمية القراءة الهادئة حتى في ظل القصف الشديد، فوجدانيات السربيوني وأمجد ناصر وقصائدهما. لا يمكن قراءتها بنفس الطريقة التي تقرأ بها تعليقات طاهر وميشيل، فكان سريع الاستجابة وقد ادى دوره بكفاءة عالية، ولا بد لي هنا ان اذكر ما رواه احد الزملاء حينما كان يتحدث يوسف عن انطباعه فيما لو ان الدبابات الصهيونية وصلت باب الإذاعة، وقد رد على الفور، بأننا سنخرج "بكلاشناتنا" ونقاتل حتى آخر قطرة دم، أما صالح الذي لم يكن قد انهى بعد "تدريبه الإذاعي" فقد كان كثير الأخطاء، ولكنه كان يتمتع بصوت هادئ وواثق، مما خفف من أثر اخطائه اللغوية، وجعله مذيعا مميزا، يعتمد عليه وعلى زميله الأكثر تجربة في النهوض بالفترة الصباحية وانتقاء المواد الملائمة التي غالبا ما كانت تتجمع في المساء.

وحينما تعمل إذاعة كإذاعتنا لفترة أطول مما كان معتادا فان مشاكل يومية مستجدة لا بد وأن تنشأ، وهنا تبرز القدرات المتميزة في التعامل مع المشاكل والمفاجآت، ولقد حدث في احد الايام ان حضر يوسف وصالح لتنفيذ الفترة الصباحية. ولم يحضر المهندس المناوب بسبب انشغاله في نقل اسرته من منزله المصاب إلى مكان اكثر أمنا وقد تصرف يوسف ازاء هذا الوضع على نحو جيد، حيث كلف مهندس الإرسال، بتشغيل الاستوديو والتنقل بينه وبين جهاز البث، ووجه نداء عبر الإذاعة، دعا فيه كافة المهندسين إلى الحضور للموقع وقد استمع طاهر إلى هذا النداء،

فانتابه قلق شديد، فتوجه على الفور إلى الموقع ليجد معظم المهندسين فعقد اجتماعا سريعا، وزع فيه المهام بشكل اكثر دقة من السابق، وكلف المذيعين على سبيل الاحتياط بالتدرب على التشغيل.

ومنذ ذلك الاجتماع، لم تصادفنا سوى مشكلة كبيرة سآتي على ذكرها. هل هذا الملجأ يكفي لاتقاء غارات الطيران؟ كان هذا السؤال يطرح على نحو يومي بل في كل ساعة، ولم تكن الاجابة ممكنة عبر اللجوء إلى خبير عسكري أو خبير في الإنشاءات، ذلك ان مفاجآت الطيران الاسرائيلي لم تدع مكانا آمنا في لبنان كله، ورغم ذلك لا بد من ايجاد جواب يبعد شبح الخوف والارتباك ويؤمن استمرار عمل الإذاعة.

كان تركيزنا على الإذاعة البديلة، وليد إحساس مسؤول بأهمية ألا نجد انفسنا في أية لحظة بلا إذاعة، ولقد وفقنا في تجهيز بديل آمن نسبيا، إن اهم محطاتنا – ٢٠ – كيلوات وضعت في مكان يصعب اكتشافه، وتوصلنا إلى نظام عمل يضمن استمرار الإذاعة حتى لو قصف الموقع (٩٥) الذي ظل آمنا بالصدفة حتى منتصف الحرب.

وموقع (٩٥) الذي هو عبارة عن ملجأ ضيق يستخدم كمخزن للحطب يكمن تحت عمارة مؤلفة من ستة طوابق كانت خالية تماما من السكان، شهد صورا إنسانية عميقة الأبعاد، ولقد ضمت غرفته الرطبة والضيقة الأشبه بالممرات، مجتمعا صغيرا، نشأت بين أعضائه علاقات استثنائية فيها حب عميق وألم مشترك وانتظار جماعي لمصير مجهول منه أن تنهار البناية على الجميع، نعم الجميع بدون استثناء.

ولقد احتدم جدل سياسي بين أمجد ناصر، الشاعر الأردني المقاتل، ويعقوب شاهين الذي تواجد معنا لأن الحرب بدأت قبل أن يغادر إلى مقر عمله في إذاعتنا بالجزائر، وقد احتدم النقاش ليصل إلى حافة الاشتباك العنيف، وقد تبادل الكادران عبارات انتقادية قاسية، كنت أراقب المشاجرة السياسية العنيفة، وانا اسمع، رغم وجودنا في الملجأ أصوات الانفجارات الضخمة حولنا، غير أن الأخ ميشيل النمري. الصحفي المعروف. استغرب

برود أعصابي، وبادرني بلهجة قاسية صارخا في وجهي يا رجل، هل أنت مسؤول الإذاعة، أم مجرد متفرج على ما يحدث،؟

– أجبته ببرود استفزازي، الآن، إنني متفرج، وساد الصمت قرابة دقيقة، ثم دعوت امجد ويعقوب للجلوس، ولاحظت أن الجميع يراقب عملية حل المشكلة باهتمام بالغ، لا اذكر ما الذي قلته في تلك اللحظات ولكنني اجزم بأن الاثنين أحسا بفداحة الخطأ، ولقد عرفت ذلك حين التصق يعقوب وامجد في عناق طويل وانصرف كل منهما إلى عمله بهدوء وضمير مرتاح.

كانت نعم هي الفتاة الوحيدة بيننا في تلك اللحظة، وما زلت اذكر تلك التحية النابعة من القلب، التي وجهها لها احد الأخوة عبر صوت فلسطين، والتي هنأته عليها، واذكر انه كان يشير دون أن يسميها، للدفء الإنساني الذي يشيعه وجودها، والتي ختمها بهذه العبارة "ما أروع حضورك بيننا. كانت الوحيدة قبل أن تنضم سلوى العمد إلى أسرة الإذاعة، ونعم فارس، فتاة لبنانية جنوبية من قرية شحور، تفيض جمالا وعذوبة، كالفراشة كانت تنتقل بين الاستوديو وغرفة التحرير والهندسة، كانت مذيعة متميزة، تراجع مادتها مرات عديدة وبلهفة قبل أن تذيعها، أما الآن وبداع من التحدي فهي تواجه جمهورها، على الهواء مباشرة ولقد كان أداؤها رائعا.

لم نكن في وضع يسمح لنا أن نناقش أفكارها المتدفقة حول ضرورة التطوير حتى في ظل الحصار، فلقد كنا جميعا نعرف أنها حديثة العهد وكل حديثي العهد يملكون طموحات كبيرة، حد الخيال، وحدث أن واجهتني نعم في احد الممرات الضيقة في موقع (٩٥) لتقول لي بكل ما لديها من رقة وعذوبة وتهذيب، هل تسمح لي يا أخ نبيل باجتماع عمل لمدة خمس دقائق؟؟

– قلت لها حسنا لنعتبر انفسنا من اللحظة في اجتماع عمل، لاحظت سعادة غامرة تملأ وجه نعم المذيعة المتدربة، التي اتيحت لها فرصة

مناقشة وضع الإذاعة كلها، وشرعت نعم في سرد أفكارها على مدى ربع ساعة، لقد كنت مخطئا في تقدير قدراتها الإبداعية، وما زالت كلماتها عالقة في ذهني حتى الآن "أتعرف أننا نمر الآن في ظروف صعبة، وأن الموت يحيط بنا من كل جانب. ولكن مقياس الالتزام لا يتحدد على نحو دقيق إلا في مثل هذه الظروف لذا فإنني اقترح، أخ نبيل، أن ندخل أنماطا جديدة في عملنا الإذاعي، فلماذا لا يكون عندنا مسلسل يومي من واقع الحرب؟ لماذا لا يكون نصف عملنا خارج الاستوديو؟ ولماذا لا ننتج أغنيات جديدة؟ اعرف انك ستلوذ بذريعة عدم توفر الإمكانات، واسمح لي في هذه النقطة أن أتحداك، وأتعهد بإنجاز كل هذه الأفكار ضمن الإمكانات المتوفرة" – همست في داخلي وكأنني أقول، أنّى لي أن اكبح جماح هذا الطموح النبيل، أخرجت نِعم بضع أوراق مكتوبة وقالت هذه خطة عملي، وسأبدأ بتنفيذها من اليوم.

المسلسل اليومي "سلي صيامك"، وهذه ثلاث حلقات جاهزة من تأليف الروائي غالب هلسة، وهذه خطة لتنفيذ التسجيلات الخارجية في المواقع المتقدمة.

وهذه خطة لإعداد الأغنيات الجديدة.

واعترفت بهزيمتي أمام الفراشة. حين سمعت ومعي بيروت ثلاثين حلقة من برنامج "سلي صيامك" واستمعت إلى اكثر من مائة تسجيل في المواقع المتقدمة، كانت الموسيقى التصويرية فيها انفجارات القنابل، وانقضاض الطائرات المغيرة، ورشقات جميع أنواع الأسلحة وضحكتها الأليفة التي لم تغب في زحمة القذائف والموت، أما الأغنيات الجديدة – وهي قمة نجاح نعم، فلقد سجلتها من مواقع المقاتلين أثناء زيارتها لهم بصحبة الفنانين المصريين عدلي فخري وزين العابدين فؤاد وابرز هذه الأغاني "من صبرا للمنارة"، "على بوابات بيروت" و"لسا السلاح يما معي"، و"ليش أخاف من الحصار" التي جرت كالتعويذة على جمع الألسنة ومنها:

"لسا السلاح يما معي/ وليش أخاف من الحصار

هي قلبي طلقا بمدفعي/ وعظمي حربه ودمي نار

رفقاتي سبعة بالكمين/ صرختهم تزلزل جبل

ولو صحت يما العزوا، وين/ يلبي صوتك مية بطل"

رحمك الله يا عدلي فخري.

– لم تطوي الأيام حكاية نعم ولم يكن حديثها عن مقياس الالتزام في الظروف الصعبة، مجرد كلام تعلمته من الكتب، أو علق على اطراف ذاكرتها من خلال جلسات التنظير التي تضج بها ساحتنا، في السلم، وإنما كانت تعبيرا نابضا، عن ارقى درجات الوعي في عقل وقلب الكادر الملتزم، لم تكن نعم مراهقة سياسية، ولا حالمة مترفة تتوارد الأفكار في عقلها، كتوارد الأفكار في مخيلة فتاة جميلة لا علاقة لها بالدنيا سوى التلذذ بخيالاتها وأوهامها.

لقد كانت نعم عضوا في حركة فتح، وعملت في اكثر من جهاز ومؤسسة وقبل أن تستقر في الإذاعة، كانت تحلم بالمسرح وأنجزت على خشبته عملا ثوريا يمكن اعتباره محاولة طموحة وجادة وكانت تحلم بدور شعبي مؤثر، فتدربت على السلاح وعاشت نبض الجماهير في حيها الوطني العريق "الشياح"، كانت تحلم بفلسطين لتدفع الأذى عن لبنان، وقبل أن تسقط شهيدة، تصادف أن التقت بالقائد أبو عمار على باب الإذاعة لتودع وصيتها الأخيرة: "أخ أبو عمار، إنني احمل اليك هدية من حي السُّلم، هل تسمح بأن اقدمها لك، لقائد المعركة"، لم تكن الهدية وردة، لقد قدمت له قبلة على كتفه المثقل بالهموم، واجهش الاثنان. القائد والشهيدة. في بكاء حار،

لقد استشهدت نعم بعد أن ودعت أبو عمار

دُفنت نعم، أو ما تبقى من جسدها النضر الشهيد، تحت كومة من تراب وشظايا ودموع، وحين ذهبنا لزيارة ضريحها في الشياح قال لنا احد

الشباب: برغم كثافة الموت وسعار القذائف من كل نوع، لقد تمت عملية الدفن بما يليق بشهيدة غالية وزرعت على هذا الضريح شجرة، وكتبت على شاهدة القبر، (هنا ترقد المناضلة نعم فارس).

***

– أربع ساعات قاتلة عاشها جمهور الإذاعة، وكاد يحدث فيها انهيار نفسي جماعي، فلقد بدأ القصف مبكرا، ولا أبالغ لو قلت إن السماء في ذلك اليوم أمطرت قذائف ورصاصا، وان الأرض كادت ترتحل إلى السماء محمولة على سحب من النار والدخان والأشلاء البشرية. إنه يوم المحاولة الإسرائيلية الكبرى لاقتحام بيروت، وفي يوم كهذا، تجتمع معظم المؤشرات على رقم "الف ومائة"، وهو موقع إذاعة "صوت فلسطين" على لوحة الراديو.

كنا في اليوم السابق قد أمضينا ساعات مضنية في العمل الموزع بين الجانب الإعلامي والجانب الهندسي، فلقد لاحظ المستمعون أن خللا فنيا اعترى إذاعتنا وأثر على نحو سلبي في درجة وضوح الصوت، حاولنا كل ما في وسعنا تدارك الخلل أثناء فترة البث، ولكن دون جدوى.

ولقد ا فادني المهندسان احمد وجهاد، بحتمية وقف الإذاعة قبل الوقت المحدد، ليتسنى لهما إجراء صيانة شاملة على الأجهزة، واقترحت عليهما إلا يفكرا بالتوقف قبل الموعد. وان يستغلا فترة المساء من العاشرة حتى الصباح لإنجاز المهمة. وبالفعل انهمك مهندسو الإذاعة طيلة الليل، وبدأوا عملية التجريب ببث مباشر من جهاز الإرسال، وقد تداخلت فترة التجريب مع الوقت المحدد لبدء الإرسال اليومي وهو السادسة صباحا.

في تلك اللحظات كان القصف العنيف كافيا لأن يوقظنا جميعا من النوم، ولقد فوجئنا بأنه حتى السابعة صباحا لم يسمع من إذاعتنا سوى الموسيقى والأناشيد، في حين أن بيروت تصطلى بجحيم من القذائف، والإذاعات الأخرى تتوقع أن هذا اليوم بالذات هو يوم اقتحام بيروت.

أوعزنا للمذيع المقاتل احمد عبد الكريم، المعروف باسم بن بيلا فلسطين، بالتوجه إلى سيارة الإرسال، وأوفدنا مذيعا إلى الاستوديو مقدرين أن المذيع المناوب تأخر لسبب ما، ورغم ذلك استمرت الإذاعة في تقديم الأناشيد حتى الثامنة لنفاجأ بعد ذلك بخطاب ارتجالي ينطلق من حنجرة قوية ولم يكن صعبا أن نعرف بأن صاحب الصوت هو الأخ أبو إياد، بعد ذلك لامست أسماعنا المقدمة الموسيقية الجميلة للبرنامج الصباحي "صباح الخير"، ثم سمعنا رشاد أبو شاور يقدم حلقة جديدة من برنامجه اليومي "كلامنا بلدي"، ثم وبعد انتظار مر مثل كابوس، انتظمت الإذاعة.

ما السر في اقتصار الإذاعة من الرابعة صباحا حتى الثامنة على تقديم المارشات العسكرية والأناشيد، لقد تبين لنا، أن جهاز الوصل بين الاستوديو ومحطة الإرسال أصيب بعطب مفاجئ عند الساعة السادسة صباحا أي لحظة بدء الفترة الصباحية المعتادة، واصبح متعذرا على مهندس الإرسال التقاط الصوت المنطلق من الاستوديو، وفي الساعات التي كان فيها المستمعون يتمزقون قلقا وحيرة، كان المهندسون يبذلون جهودا مضنية لإصلاح جهاز الوصل وقد وقفوا في ذلك عند الثامنة صباحا، لم يكن من السهل إيضاح الأمر، ورغم أن المبررات الهندسية كافية لتفسير موقفنا إلا أن الجميع سجل علينا خطأ كبيرا وصل إلى حد اتهامنا بالتقصير، ولقد سمعنا نقدا لاذعا، ملأ قلبي حزنا، حينما قال احد الأخوة القياديين: "إن بيروت كانت تحترق، وشباب الإذاعة يغطون في نوم عميق".

ولقد ادركت في ذلك الموقف البعد المأساوي لعملنا في الإذاعة، فمن غير المسموح به لهذه الشمعة التي تحترق وتذوب، أن تنطفئ أمام الأعاصير مهما بلغت همجيتها ووحشية قصفها وتدميرها، ومع تسليمي بلا منطق هذا الافتراض إلا إنني أقول انه على حق، وكل الذي استطيع فعله في حالة كهذه أن انصرف إلى مجتمعنا الصغير الذي اسمه الإذاعة، لأحاول مرة أخرى، من أجل ألا تنطفئ شمعتنا الصغيرة.

***

– في ذلك اليوم، يوم المحاولة الكبرى لاقتحام بيروت توجهت إلى الاستوديو، منذ التاسعة صباحا، وكان سبب تأخري هو جمع اكبر قدر ممكن من المعلومات عن الموقف الراهن. ولقد شعرت أن هذا اليوم ربما يكون اخطر أيام الحرب، ومع ثقتي بمتانة الخطوط الدفاعية المقامة حول بيروت وصعوبة اختراق هذه الخطوط، إلا أن هواجسي وصلت بي حد تخيل الدبابة الإسرائيلية تقف تحت نافذة الاستوديو.

ولم يكن بوسعي في ذلك الوقت اتخاذ ترتيبات لمواجهة مثل هذا الاحتمال، فلقد ضاقت جزيرتنا واصبح كل شيء شديد الصعوبة، بل صرنا جميعا ـ وكل في داخله يتعامل مع أسوأ الاحتمالات، والأسوأ بلا شك كان دخول الإسرائيليين ووراءهم وتحت حرابهم ميليشيا الكتائب، لكننا قررنا الموت واقفين حتى آخر طلقة، بل حتى آخر سكين في "مطبخ"، فلم يكن لكبريائنا الثوري من خيار سوى القتال حتى اللحظة الأخيرة.

كان قطع المسافة بين المقر المركزي للإذاعة والاستديو، أشبه برحلة يرافقك فيها الموت خطوة بخطوة، وكنا قد اكتشفنا طريقا آمنا إلى حد ما، يمتد عبر الممرات الضيقة التي تتعرج وتتشابك بين غابة العمارات المرتفعة. وفي تلك الأثناء، كان من قبيل المجازفة المستهترة أن تنتقل بسيارة أو حتى دراجة فمن لا يموت بقذيفة مباشرة يمكن أن يتمزق من الشظايا المنتشرة في الهواء في كل أنحاء بيروت وسمائها.

وقد قطعت المسافة بين المقر المركزي والاستديو، دون أن اشعر بما يجري حولي، ولا اظن أن الأمر متعلق بالشجاعة، وإنما بفعل إحساس عميق، بأنه لم يعد في بيروت أي مكان آمن على الإطلاق، وبناء على ذلك يستطيع الإنسان أن يستسلم بارتياح للحظ والصدفة مع قدر من التصميم على الوصول، ولقد وصلت لأجد أمامي المشهد التالي:

في مكان صغير من العمارة، توجد مساحة ضيقة يطلق عليها السكان بيت الدرج، وقد كانت مساحة هذا المكان الذي وضعنا فيه الاستوديو

الجديد متران عرضا بأربعة امتار طولا، يأخذ الدرج حيزا منها، وإلى جانب بيت الدرج، يقع مخزن للأثاث القديم مساحته ثلاثة أضعاف بيت الدرج تقريبا ولم يكن للمكان كله مزايا أمنية استثنائية، حيث انه مشرع من الجهة الغربية على البحر عبر ثلاث نوافذ كبيرة، وكثيرا ما كنا نجازف بأرواحنا لنقف خلف النوافذ، لمشاهدة رشقات راجمات الصواريخ تخرج من عندنا أو تنهمر علينا.

ولقد اختار حسن عصفور، مناوب الأخبار، هذا المكان كمقر ثابت له، مستفيداً من وجود جهاز اللاسلكي والتلفون العسكري، وأجهزة الاستماع، والثلاجة الصغيرة التي لم تكن تخلو من زجاجات الماء البارد، في وقت كانت فيه هذه الزجاجات ارقى مستويات البذخ والترف في بيروت، وحين كان المذيع ينتقل من الاستديو إلى مكتب الأخبار الذي يفصله عنه باب صغير، ويتصادف ذلك مع قصف عنيف، كان المهندس يبادره ضاحكا:

– كيف الأوضاع على خط التماس، على كل حال الحمد لله على السلامة هذه المرة؟

فالشظايا دخلت ـ وبحجوم مرعبة ـ اكثر من مرة إلى "مخزن" التحرير هذا، وبأعجوبة لم تصب أحدا.

وصلت إلى الاستوديو، حوالي التاسعة وعشر دقائق، القصف تضاعف في تلك اللحظات، كان الجميع يحتشد في الاستوديو. يوسف يستلقي على الدرج منتظرا دوره في قراءة المادة المقررة، والدكتور صلاح يذيع تعليقا سياسيا حول تفاعلات الحرب داخل إسرائيل، ورشاد يشتبك في جدل صاخب مع المهندس صلاح الذي لم يطبع حلقات برنامج "كلامنا بلدي" على اشرطه كاسيت، والحاج خالد مسمار الذي كان نائبا لمدير الإذاعة، هو الآن مسؤول التوجيه السياسي في احد قطاعاتنا العسكرية، ومعروف بصوته الإذاعي الجميل والذكي خصوصا في قراءة الوجدانيات – كان الحاج خالد ملقيا بكل ثقله "المتواضع" على الباب الخشبي الذي يفصل الاستوديو عن قسم الأخبار، وأول كلمة

نطقت بها كانت موجهة للحاج خالد مسمار، "ما الذي يدعوك للوقوف هكذا هل تحاول اتقاء القذائف بجسدك؟".

ابتسم خالد بهدوئه المعروف. والذي له قصة تروى. وبادرني قائلا: إن اهتزاز الباب من جراء أصوات الانفجارات يصل إلى الميكروفون، لهذا أحاول منع الاهتزاز.

– وعن هدوء الحاج خالد يروي أحد الأخوة هذه الحادثة.

في موقع آل (٩٥) وذات يوم من أيام حزيران المخيفة، بدأت الطائرات قصفا مركزا على الفاكهاني أي حولنا، ورويدا رويدا، بدأ القصف يقترب والعمارة تهتز بنا، "أي تهتز؟" – بل قل كانت تميد، وأخذت قطرات الماء تتساقط من سقف الملجأ ونثارة البويا والإسمنت "تتهرهر"، وبخلاصة بتنا في داخلنا جميعا، مقتنعين أنها النهاية، كان يعقوب يقف صامتا بعصبية مكتومة، في حين كان أبو زيد يصلي في غرفة الآلات، والمحررون في غرفة التحرير الصغيرة الملاصقة للاستديو، واجمون وكأن على رؤوسهم الطير، وأحد الزملاء كان يرتعش بخوف ظاهر لا إرادي، في حين كان ثمة سيكاره تحترق وحيدة فوق منفضة مليئة بالأعقاب المطفأة، كنت ارقب المشهد لحظة شخصت نظري باتجاه الحاج خالد كان هادئا كعادته، وطيف ابتسامة ما زال تحت شاربيه الأسودين المنتظمين فوق ثغر خجول ودقيق.

كان يمشي الهوينا، ثم توقف فجأة وبدت عيناه خلف نظارته وفيهما شيء من القلق والاستغراب والتساؤل، في تلك اللحظة كان الجميع مطرقين، بانتظار الكارثة، عنف القصف وشرخ صوت انفجار بقية الأمل، وأحسسنا أن كل شيء سينتهي خلال لحظة، ما زلت اذكر تلك الحركة، حين امتدت يده اليمنى وأغلقت زر سترته العلوي بهدوء، وكأنه ينطق في أعماقه بالشهادتين أو هكذا خيل لي.

وبمزيج من خوف وتحد أو ما يسمى انتفاضة اللحظة الأخيرة، شعرت بضرورة أن اكتب شيئا متحديا، واذكر أن فحواه، كان يعني أننا صامدون هنا فوق أو تحت هذا الدمار المقدس، لا فرق، وسيظل صوت فلسطين صادحا، وستظل بنادق الثورة مشرعة، حتى يوم ينطلق، صوت فلسطين، صوت جمهورية فلسطين الديمقراطية من القدس. يعقوب قرأها، وكأنه يقصف، أو كأنه يرد على القصف بقسوة، بتحد وثبات، ولم نعد نذكر ما يحصل في الخارج، حينما انطلقت أهزوجتنا الحبيبة "طالعلك، يا عدوي طالع، من كل بيت وحارة وشارع"، وكان الجميع يرددونها بحماس وفرح وبحركات اقرب إلى الرقص، وحينها افترت شفتا الحاج عن ابتسامة عذبة، اعترف، لقد كانت ابتسامة تمنحني الاطمئنان، لذا حينما اغلق بحزن عروة سترته، لا ادري لماذا شعرت أن النهاية اقتربت؟ لقد ندمت على هذا الشعور

والآن أعود إلى الشباب، فقد كان صفير القذائف يمر فوقنا ويخترق آذاننا وكنت ألاحظ مجرى القذيفة على وجه يوسف الذي كان يحسب اللحظات الفاصلة بين صوت الصفير ودوي الانفجار، مع احتمال أن تسقط واحدة على بابنا في أية ثانية. وكان بن بلا، المدجج بالقنابل وقذائف الآر بي جي، يطلق بين وقت وآخر فتاويه العسكرية محددا أنواع القذائف والصواريخ، مطمئنا إلى أن أحدا من الحاضرين لن يجادله في معلوماته خاصة وانه يحمل لقب المراسل العسكري للإذاعة ولابن بلا قصة تنطوي على قدر كبير من الطرافة سآتي على ذكرها في مكان آخر.

وفي ذلك اليوم كانت بيروت تغرق تحت طوفان من البارود والدم والشظايا فقد توزع الموت في كل حي وشارع وبيت من الفنادق والروشة والحمراء شمالا حتى الأوزاعي والبرج والشياح جنوبا، كانت المدينة تحترق وتتقطع وتئن لكنها تواصل التحدي، في حين كان المدافعون عنها واقفين كالصخرة الصلبة دون أن يتراجعوا مليمترا واحدا،

كان يعقوب شاهين، غارقا حتى أذنيه في أزمة خاصة، فقد كان ضيفا عند نسيبته الساكنة في احد اخطر المناطق، وحين شمل التدمير بيت نسيبته، لم يجد مكانا سوى الاستوديو يلوذ به، ولقد فوجئت بوجود سيدتين تجلسان على بعد أشبار من الميكروفون وقد وضعن أيديهن على آذانهن كي لا يسمعن القصف المتبادل بين المذيع والمدفعية الإسرائيلية، رمقني يعقوب معتذرا وأحسست بأنه يترتب عليّ مهمة جديدة لهذا اليوم وهي إيجاد مسكن للضيوف الجدد.

كثيرا ما كنا نخترق الوضع النفسي الصعب، بابتكار النكت والطرائف، وكنا نستغل فترة إذاعة مادة مسجلة لنأخذ راحتنا في التهريج والضحك بصوت مرتفع حتى أننا كنا نستأذن المهندس، اذا كان الوضع يتحمل تهريجا من العيار الثقيل، وكان رشاد أبو شاور في الغالب هو نجم هذه اللحظات، ولقد ولدت في ذلك اليوم طرائف عديدة، اذكر منها انني قلت لرشاد: هل تعرف يا ابن كنعان بماذا كنت افكر هذا الصباح؟ فأجاب باللهجة الاستفزازية:

سأعطيك بعد إذن المهندس دقيقة واحدة

قلت: تخيلت أننا قد نطل من الشباك لنرى دبابة إسرائيلية توجه فوهة مدفعها نحونا ولنفترض أن مثل هذا الأمر حدث، وكنت أنت الواقف على الشباك فماذا تفعل؟

أجاب رشاد:

سأخرج رأسي من النافذة وأقول له:

- ما اسمك يا ولد؟

ولنفترض انه قال: كوهين؟

سأقول له بعد ذلك: يا ولد "قف وفكر، من يحاصر من"؟

ولكل من هاتين العبارتين قصة تتعلق بالحرب.

قف وفكر، هي مقدمة النداءات الفاشلة التي كانت توجهها الإذاعة الإسرائيلية باللغة العربية لمقاتلينا، بغية حملهم على إلقاء السلاح، وقد تحولت هذه العبارة مع استمرار المعركة إلى نكتة يتداولها المقاتلون وقد تم تطوير هذه النكتة حين قام خليل وغسان بتسجيلها في مقدمة النداء باللغة العبرية، موجهة بالميكروفون على خطوط التماس للجنود الإسرائيليين الذين يحاصرون بيروت، وقد جرت على خطوط التماس، حوارات لا تنسى عبر هذه الأشرطة والميكروفونات، بين مقاتلينا والجنود الإسرائيليين.

أما عبارة "من يحاصر من"، فلقد وردت في احد تصريحات بيغن ورسائل فيليب حبيب، حين قيل إن عرفات يتصرف من موقع المحاصِر، وليس المحاصَر.

***

أين وصلت الحرب؟

هذا السؤال هو الذي كان ينتزعنا من لحظات التهريج الصاخب. لم أتلق حتى الآن أي بلاغ عسكري يحدد سير المعركة ونتائجها الأولية، والبلاغ الصباحي لم يعد كافيا ولا مناسبا لأن نبدأ به نشرة الظهيرة، خاصة وان القصف لم يتوقف، والمصادر الإسرائيلية، تقول إن الإسرائيليين احرزوا تقدما مهما على خطوط التماس.

كان عدم انتظام الأخبار، مشكلة يومية تتضاعف حين تنقطع وسائل الاتصال الداخلي، ولا نجد بدا من الانتشار في اكثر من اتجاه لجمع الأخبار، وحقائق الموقف، ولقد كنا حريصين دوما على أن تكون بلاغات العمليات المركزية هي الأساس الأخباري الرئيسي في تغطية الجانب العسكري من المعركة، وحين كان يحتدم النقاش بين مناوب الأخبار والضابط المناوب في غرفة العمليات حول تأخر البلاغات، كان مناوب الأخبار يلجأ إلى استدراج الضابط بطريقة استفزازية كالقول: إن إذاعة

إسرائيل تدعي بأن القوات الإسرائيلية أحرزت تقدما مهما علي خطوط التماس فهل لديك ما ينفي ذلك، ورغم خطورة هذا الاستدراج الاستفزازي وما ينطوي عليه من مغريات، إلا أن الضابط كان يجيب بحسم:

– لا علاقة لي بما تقول، انتظر البلاغ الرسمي، وحين كان يسأل الضابط المناوب عن المدة التي يتعين علينا انتظارها للحصول على البلاغ الجديد، كان يجيب بلهجة عسكرية جافة، لا اعرف انتظر، سيصلك البلاغ فور صدوره.

– كنا دائمي التذمر من قلة البلاغات العسكرية وربما كنا نتخيلها قليلة بحكم حاجتنا الماسة، لتقديم خبر جديد في كل نشرة، ولكن، حين كنا ندرس البلاغات العسكرية، كنا نجد فيها دقة متناهية في تحديد الموقف، وكان المذيعون ولعوامل إنسانية صرفة، يتفاعلون مع البلاغات من داخلهم، فتراهم في قمة السعادة وهم يستقبلون بلاغا عسكريا يبدأ بعبارة: تمكن مقاتلونا من إفشال عملية انزال أو محاولة اقتحام على هذا المحور أو ذاك، وكانوا يتسابقون على قراءة مثل هذا النوع من البلاغات.

واذكر انه في ذلك اليوم، يوم المحاولة الكبرى والفاشلة للاقتحام – جاءنا البلاغ العسكري الرسمي متأخرا بعض الوقت، وكان يتضمن إعلانا حاسما وواثقا، بأن قوات الغزو فشلت في التقدم على أي محور من محاور التماس، وانها تكبدت خسائر فادحة في الأرواح والمعدات، وان العديد من الدبابات الإسرائيلية – اكثر من عشرين – تشاهد مشتعلة على اكثر من موقع.

ولقد أسعفتنا إذاعة صوت لبنان الكتائبية، حين اعلنت أن رشقة من صواريخ (غراد) هبطت على عشرات من الجنود والضباط الإسرائيليين على المدرج الشرقي للمطار، وأصابت تجمعا للآليات والأفراد إصابات مباشرة، وهذا يعني أن القتلى بالعشرات. ومما عزز القول بفشل المحاولة الإسرائيلية، وإيقاع خسائر مؤلمة في صفوف الغزاة، تدخل الطيران

الإسرائيلي على نحو متأخر، وبكثافة شديدة، حيث كان واضحا للجميع أن الطيران يقوم بعمليات انتقامية بعد فشل محاولة الاقتحام الواسعة.

ولقد تنفسنا الصعداء، حين اعلن الإسرائيليون انهم تمكنوا من التقدم مسافة عشرة امتار باتجاه المتحف، ليعلق طاهر العدوان بعدها:

سبحان مغير الأحوال، كان الإسرائيليون في حروبهم العدوانية السابقة يتقدمون بأقصى سرعة بالدبابة، ويقطعون الأميال في الساعة الواحدة وها هم الآن يفاخرون بتقدمهم لمسافة عشرة امتار، اغلب الظن أنها ليست صحيحة؟

أنجزنا يومنا الإذاعي والشاق، وعدنا جميعا إلى المقر المركزي، ولم نكن ندري أن بعض الأخوة تعرضوا لاحتمال الموت مرات عديدة في طريقهم الينا، وصلنا لنجد رسالة غير موقعة يحملها احد مرافقي القائد العام تتضمن دعوة لي لمقابلة الأخ أبو عمار، وحين كانت الرسالة تتضمن إشارة إلى وجوب إحضار احد المهندسين، كنت اعرف على الفور أن الأمر يتعلق بتوجيه خطاب حي للجماهير، والمقاتلين عبر الراديو، وكنت استشعر أهمية استثنائية لانطلاقة صوت عرفات عبر الإذاعة خاصة بعد يوم ثقيل من القصف والمعارك ومحاولات الاقتحام.

***

كان شيئا يشبه الهدوء يخيم على بيروت في تلك الليلة، وحين كنت احس بحاجة للانطلاق بخيالاتي بعيدا عن أجواء الحرب، كنت ألوذ بسيارتي الصغيرة، وأجول بها ما تبقى من شوارع شبه آمنة، ثم اطلق العنان لخيالي حيث تعبر صور متلاحقة من تلك التي ترتبط بالحياة العادية في زمن السلم، عن الزوجة بشرى والأولاد طارق ونرمين ومروان، والرضيعة ندين التي لم تتجاوز الشهور الأولى الثلاثة من عمرها، اما شقيقهم الاصغر محمود.. فقد كان أثناء الحرب مجرد فكرة اتفقنا على تحقيقها لو خرجنا سالمين. والأهل القلقين والمترقبين لحظة لقاء تبدو مع كل معركة، بعيدة أو مستحيلة.

كنت افتح جهاز التسجيل واستمع إلى أية أغنية ولن انسى ذلك الكاسيت الذي استمعت اليه في الطريق بين المقر المركزي ،واحد المقرات التي كان يتواجد فيها الأخ أبو عمار، كان الشريط يحتوي على عدد من أغنيات الأطفال، وفجأة انقطع صوت الأغنية، لتنطلق مجموعة أصوات صاخبة، كانت تسجيلا قديما لاستجواب أجراه طارق ابني الأكبر مع أخته نرمين، وما اعذب ضحك الأطفال، وما اثقله على الوجدان حين تستمع اليه في مثل هذه الظروف، لو لم يكن أبو زيد بجانبي في تلك اللحظات لقمت على الأقل، بإيقاف السيارة، والإجهاش في بكاء صريح.

وصلت إلى مقر أبو عمار في حوالي الحادية عشرة ليلا، وجدته محاطا بعدد من القادة والمساعدين، وكان العميد أبو الوليد الذي لا يعرف المجاملة، يجلس على مقعد ملاصق لمقعد أبو عمار، وما أن رآني حتى هب بكل ما فيه من صرامة عسكرية، كنت أجلها واحترمها، وسأظل ما حييت اذكر من القائد الشهيد قوله ما الذي فعلتموه اليوم؟ لقد استمعت إلى تعليق لم يعجبني، سألت العميد بلهجة فيها بعض المزاح: إننا نذيع اكثر من خمسين تعليق في اليوم الواحد فأيها لم يعجبك؟

أجاب العميد بكل جدية: تعليق هاجمتم به كل العرب، بصوت الحاج خالد، قلت: سيدي العميد، وهل بعد كل الذي حدث، بقي شيء يمنعنا من قول الحقيقة.

أجاب العميد: إن الهجوم في وضع كهذا قد يخلق بعض اليأس عند قواتنا، وعليك أن تدرك كمسؤول، بأن في داخلنا بقية أوهام قد تبدو مفيدة، ومن هذه الأوهام احتمال تبدل ما في المواقف العربية، عليك أن تضع هذا الاحتمال في عقلك، أنا لا ادعوك للترويج لمثل هذا الاحتمال، ولكن يجب أن تظل النافذة مشرعة حتى النهاية.

– قطع أبو عمار حوارنا ليسأل ما اذا كنا جاهزين للتسجيل؟

خلال ربع ساعة، سجلنا نداء القائد العام لمقاتليه وجماهيره، واكثر كلمات ذلك الخطاب رسوخا في الذاكرة "أيها المجد اركع أمام أبطال بيروت".

حملنا جهاز التسجيل والشريط المسجل عليه نداء القائد العام، وتوجهنا إلى الاستوديو، وسلمنا الشريط للمهندس المناوب، وأصدرت له تعليمات بإذاعته على التاسعة صباحا.

****

كانت وكالة الأنباء الفلسطينية "وفا"، قد اتخذت مقرا لها تحت الأرض في قاعة اجتماعات المجلس الثوري لحركة فتح، وكان خليل الزبن رئيس تحرير "وفا" في مكتب دمشق، هو اكثر المسؤولين حضورا في ذلك المكان الخطر، ولقد رغبت في تلك الليلة أن أقوم بزيارة له، مستغلا فترة الهدوء التي تخيم على بيروت، ومحاولا الإفادة من الهاتف الدولي الذي ظل يعمل طيلة الحرب، وقد اصطحبت المناضلة جنين البينا في هذه الزيارة لتحاول هي الأخرى الاتصال مع باريس.

كانت بيروت غارقة في ظلام دامس، إلا من بعض وميض يصدر من مصابيح السيارات المجازفة بالتنقل تحت مرمى المدافع والرشاشات الإسرائيلية المحيطة ببيروت بإحكام "فظيع" من جميع الجهات، وحينها الحت علي رغبة جامحة بزيارة مقر الإذاعة القديم، وما أن وصلت المكان الذي اعتدت أن أضع فيه سيارتي. في الظروف العادية . حتى تقدم مني احد رجال الحراسة، آمراً بإطفاء النور، امتثلت له، ثم عرفته بنفسي.

سألته عن الأحوال، ففهمت منه أن مجموعة قذائف انفجرت على سطح المبنى وفي الداخل، وكان لا بد أمام هذه المعلومات الجديدة، من القيام بجولة تفقدية، خاصة وان قسما لا يستهان به من الأشرطة والأرشيف ما زالت في الموقع القديم،

صعدت مع جنين إلى الطابق الثاني، وكنا مع كل درجة نرتطم بالشظايا المتناثرة والحفر الصغيرة، مما رسم صورة مرعبة لما سنجد من خراب وحرائق، ولقد كانت مفاجأة لنا، أن نجد الاستوديو والأرشيف سالمين تماما إلا من بعض الغبار، قلت لـ جنين، ونحن نتأمل الاستوديو الأنيق على ضوء شمعة كنا قد استعرناها من الحراسة:

– انظري يا جنين ما اجمل هذا الاستوديو، لقد بنيناه بأيدينا "وشحدنا" هذه المسجلات الفخمة من احدى الإذاعات الشقيقة وهذه الخريطة المجسمة كالخنجر هي خريطة فلسطين، لقد وضعناها في صدر الاستوديو، كرسالة لجميع الزوار، تقول فيها: إننا نعيش ونموت من اجل فلسطين.

كانت جنين تنظر لي بتعاطف، وكأنها تستمع مني إلى تأبين في غير وقته لتجربة عزيزة على قلبي، ففي هذا الاستوديو بالذات تمت أشياء مهمة، رسائل أبو عمار في أعياد الثورة، ندوات حول كافة المواضيع الثقافية والسياسية، موسيقى وأغنيات وحفلات صغيرة، كانت نظرات جنين الحزينة توشك أن تقول:

– لقد انتهى هذا الفصل من التجربة.

كان السكون شاملا لحظة وجودنا في الاستوديو، ولما هممنا بالخروج، انفتحت أبواب الجحيم مرة أخرى ودوت الانفجارات العنيفة حتى خيل لنا أن العمارة ستهوي، ولقد امتلأ قلبي بالرعب، وانا أشاهد وميض الانفجارات ينعكس خافتا على بقايا النوافذ، وزجاج الاستوديو، انه قصف مباشر للشارع الذي نحن فيه، ولقد أيقنت بأن القذائف تنهال على مبنى الإذاعة حين رأيت بأم عيني باب الاستوديو الضخم يغلق ويفتح بفعل الاهتزاز، ورائحة البارود والغبار المتطاير تملأ المكان.

تحاملت على نفسي كثيرا لأبدو هادئا، واقترحت على جنين أن نهبط الدرج لنقضي بعض الوقت في غرفة الحرس الآمنة نسبيا من القصف

المدفعي، وقبل أن نصل إلى الباب الذي كانت تفصله عنا خطوات قليلة، انهمرت القذائف مرة أخرى ووجدنا انفسنا في زاوية الاستوديو صامتين بلا حراك.

جنين، هل تعرفين بماذا أفكر الآن، ينتابني إحساس عميق بأن دائرة الموت اكتملت من حولي، وأن الأقدار نسجت لي هذا الموت في المكان الذي أحب، فلو قدر لأي منا أن ينجو هذه الليلة فليحك القصة،

صمت القصف، فانطلقنا بسرعة نهرول على الدرج المحطم لنجد أمامنا عنصر الحراسة واقفا بجانب السيارة المغطاة بالغبار.

سألته: أين بقية زملائك؟

أجاب: إنهم في الملجأ.

وأنت، لماذا تقف في عرض الشارع، وأين كانت هذه الانفجارات؟

ضحك الحارس قائلا إنها كالمطر في كل مكان.

كانت الحرائق الصفراء مغلفة بالدخان والغبار والشارع المهجور يبعثان في النفس إحساسا بالكآبة والقلق، ركبنا السيارة وانطلقنا، بأقصى سرعة، لكن باب الجحيم فتح مرة أخرى، لأجد نفسي بعد لحظات، أمام العمارة التي كان يسكنها الشهيد ماجد أبو شرار، تركنا السيارة وانزلقنا إلى الملجأ الذي كان معرضا لبيع السيارات القديمة، لنجد أمامنا مجموعة من الشباب يحضرون الشاي، القت جنين نفسها على فراش صغير وغطت على الفور في نوم عميق، شربت الشاي مع الشباب، الذين استغلوا فرصة وجود مدير الإذاعة بينهم فأمطروني بوابل من الأسئلة كان أكثرها إيلاما في نفسي، سؤال أحدهم، متى يبدأ الرحيل؟

كان صخر أبو نزار، أمين سر المجلس الثوري، وصاحب شعار "لازم تزبط"، كثير التردد على المقر المركزي للإذاعة، وفي كل زيارة جديدة، كان يبادرنا بسؤال، هل أمنتم مقرا آخر، أشعر أن هذا المقر

الذي يضم حشدا كبيرا من الكوادر يمكن أن يقصف، ولكي يدلل على جدية إحساسه، كان يعلن بأن هذه الزيارة ستكون الأخيرة، وكنا نرد الكرة إلى مرماه حين نطلب منه أن يتكفل هو بتجهيز المقر الجديد، فلم يكن بوسعه إلا دعوتنا إلى العمل في مكتبه وكنا نعتذر لبعد مكتبه عن الاستوديو.

كان احتشاد الكوادر الصحافية في الإذاعة، يبعث على القلق، واحتمال تدمير المكان، كان واردا في أي لحظة، ذلك يعني خسارة فادحة على صعيد قطاع هام من قطاعات الثورة، ولكن لا بد من المجازفة مع محاولة اتخاذ بعض الترتيبات الاحترازية، وذات ليلة عقدنا اجتماعا لهذا الغرض بالذات واتفقنا على أن نتوزع على أربعة أماكن متباعدة، وان يتم الاتصال عبر نقاط محددة.

– حنا ورشاد وأبو بشار وميشيل، في مكان.

– السربيوني ونزيه وغالب وسلوى، في مكان آخر.

– نبيل وطاهر، في المقر المركزي.

المذيعون والمهندسون، في اماكن متفرقة تبعد عشرات الأمتار عن الاستوديو، ولقد تم التقيد بهذا التوزيع الجديد لأيام قليلة لنكتشف جميعا اننا لا نستطيع الابتعاد على الاقل في المساء، حيث كانت اجتماعاتنا وحواراتنا تستمر حتى ساعات الصباح الأولى.

ان العلاقة التي نشأت بيننا في الموقع الجديد، لم تكن مجرد علاقة عمل، فلقد ألفنا بعضنا البعض بشكل لم يسبق له مثيل، وحين كان يتأخر اي منا عن الجلسة المسائية كنا نحس بفقده فيملأنا احساس جماعي بالشوق له والخوف عليه، ولو جرب اي منا تحديد حجم علاقته بالآخر في الظروف العادية لوجدنا جميعا انها كانت علاقة عادية، اما الآن فان الأمر يختلف، إننا بالفعل اسرة واحدة تعودت العيش تحت سقف واحد، رغم الخطر المميت الواقف خلف الأبواب وبين المنعطفات وحتى الغرف.

قصص كثيرة حدثت ومفارقات، سوف تبقى، باعتقادي راسخة في أذهان من عاشوها، لقد كان احساسنا بالخيبة من الصمت العربي عميقا حتى النفي، ومع ذلك لم نفقد قدرتنا على استخراج الفرح من قلب المأساة، فما يحصل كان مريرا وبلا حد، منظر الأطفال المرتعشين تحت وابل القصف الاسرائيلي المتواصل، وتحس بذلك السكوت المميت في الصالونات العربية، ومرارة الصمت حين كانت الطائرات الاسرائيلية توزع الموت بلا حساب في كل حي وشارع وبيت وملجأ، وكنا في قلب المعمعة نرى كل ذلك، وبدل ان نتمزق قهرا كنا نستحضر الضحكة.

عشرات الاسئلة الخارجة من ألم عميق، وصل حد السخرية، وجهناها لبعضنا، ولكنه الضحك من الألم، أو الرقص على الجراح، كما فعل فلاح، حينما كانت الشظايا المخيفة تدخل الاستوديو والمخزن المجاور له، فراح يرقص، أكان تحديا للقذائف، ام تسليما بأن على الانسان قبل ان يرحل ان يترك صورة "راقصة" في عيون زملائه، وذكرى متحركة مليئة بالإنسانية.

فلاح الذي اصيب بما يشبه رعدة المفاجأة، او هول الضربة الأولى في بداية الحرب، لزم بيته وأصيب بنحول سرعان ما تحول إلى مرض معوي، هذا الشاب الذي تدين له الإذاعة بالكثير قبل الحرب، وبعد زوال رعدة الايام الاولى، وفي ذات اليوم زاره احد الاخوة في بيته وبعد عناء، اقنعه بالخروج في نزهة إلى الجامعة الأمريكية، التي كانت بعيدة نسبيا عن القصف، وتمتاز بجو جميل يطرزه العشب والشجر وتلك الاطلالة الساحرة على بحر بيروت.

وحين بدأ فلاح يحس بالانتعاش، والأسى لأنه لا يخرج في مشاوير كهذه، دوى انفجار مخيف، حسبا للوهلة الاولى انه لا يبعد عنهما سوى امتار قليلة، ظناه قصف طيران، فتراكضا وراء جذوع الاشجار اتقاء للأحجار المتساقطة من السماء كالمطر، لقد كان الانفجار يستهدف عمارات يقطنها مهجرون في عين المريسة الملاصقة لسور الجامعة الأمريكية، ولقد ذهب ضحيته اكثر من ثلاثمئة جريح وقتيل من الاطفال

والنساء، لعن فلاح حظه العاثر، وانهال بالعتب على زميله لكن ذلك كان كافيا، لأن يكون فلاح في اليوم التالي بيننا على رأس عمله، وبلا كلل.

أما سلوى، تلك المشاكسة الشقراء الجميلة، التي اخترقت الحصار وجاءت تشاركنا آلام "وأفراح" تلك الأيام، فقد اخترقت الحواجز الإسرائيلية والكتائبية عن طريق طرابلس بعد أن قطعت دورتها التدريبية في المانيا الشرقية، لقد قامت بنشاط ممتاز على صعيد عملنا، وكان من الممكن أن تتعرض للأسر أو الموت على احد الحواجز الإسرائيلية والكتائبية فيما لو اكتشف أمرها، وكلنا نذكر الآن كم كان حضورها حلوا بيننا.

***

الساعة السادسة صباحا، صحوت على صوت الطائرات المغيرة، وهي تحلق بكثافة في سماء بيروت، خرجت إلى شرفة كنا نسميها شرفة الاستطلاع، فقدرت أن معركة هذا اليوم بدأت مبكرة، بما حملني على الاعتقاد بأن محاولة جديدة لاقتحام بيروت ستنفذ هذا اليوم، فتحت جهاز الراديو وسمعت إشارة افتتاح صوت فلسطين، شرعت في إيقاظ طاهر والحاج خالد اللذين كانا نائمين في المقر، لم تمض بضع دقائق حتى كنا في الشارع، متوجهين عبر الطريق المتعرج إلى الاستديو الذي كان قد نقل في الليل إلى مكان جديد لا يبعد سوى عشرات الأمتار عن المكان السابق.

وما أن وصلنا الأستوديو، وكان ذلك حوالي السادسة والنصف صباحا حتى بدأت "حفلة" قصف الطيران، كان محررو الأخبار يجلسون خلف مقاعدهم في العراء هربا من رطوبة الغرف المغلقة التي أحدثت اكثر من إصابة مرضية لبعض الأخوة. التحق خالد بالاستديو، وبقيت أنا وطاهر إلى جانب المحررين وشرعنا جميعا في الكتابة على انغام آل إف ١٥. لم يكن سهلا على أي من الزملاء اكتشاف المقر الجديد مما احدث مشكلة حقيقية لنا، وهي نقص المواد المكتوبة، وبعد أن أعددنا برنامجا لمدة ثلاث ساعات توجهنا – طاهر وأنا – إلى المقر المركزي في محاولة لجمع الكوادر وتأمين المواد الكافية ليوم إذاعي طويل.

كانت الشوارع مقفرة تماما حتى من المقاتلين الذين اتخذوا لأنفسهم أماكن غير مكشوفة، وحين وصلنا إلى المقر بعد غياب لا يتجاوز الساعتين، أحسسنا بشوق بالغ له، فأحزننا الصمت المهيمن على المكان، ومن الشرفة شاهدت أم بشارة جالسة على بلكونة منزلها في الطابق الثاني تشرب قهوتها الصباحية، وكأنها تتحدى كل سلاح الطيران الإسرائيلي، وما أن رأتني حتى اشرق وجهها بالفرح وسمعت منها كلمات كالنسيم:

أين كنتم هذا الصباح، لقد اشتقت لكم؟

دعتني أم بشارة لمشاركتها قهوتها واستسلم طاهر للنعاس مسترخيا على أرض الغرفة، بدأ الشباب يتوافدون على المقر واحد تلو الآخر، وكنت ارقب دخولهم من بلكونة أم بشارة، ولما وصل العدد قرابة العشرة، التحقت بهم.

كان كل واحد منهم قد احضر معه المواد التي اعدها لبرنامج اليوم دون أن ينسى احد أن يكتب الاحتياط الذي كان له لزوم دوما، فيصل حوراني ومعه حلقة من برنامجه اليومي "أضواء على جبهة العدو"، ونزيه أبو نضال "كلمة ورد غطاها" ورشاد أبو شاور "كلامنا بلدي" ومحمود السربيوني "صباح الخير"، وحنا مقبل مجموعة تحليلات وتعليقات، وأبو بشار الساخط دوما على الأنظمة يحمل رزمة كبيرة.

ذكرت الشباب بالتعليمات الأمنية، وبصعوبة بالغة تم تفريقهم، على موعد جديد عند التاسعة مساء، وبقيت مع طاهر بمفردنا.

كنا نراقب الإذاعة، وكأننا نستمع اليها لأول مرة، كان الصوت صافيا ونقيا، وكان يتناهى إلى سمعنا معه، أصوات الانفجارات القريبة وكأنها مؤثر صوتي تم إعداده بكفاءة مهنية عالية، كان القصف عنيفا في ذلك اليوم. اغلق طاهر الراديو وخيم الصمت على الغرفة لقد بدأت القذائف تقترب حتى بدت أصوات الانفجارات وكأنها على بعد امتار منا، واذكر أننا لمرات عديدة نهضنا واقفين بعد أن مالت بنا البناية فخيل لنا أنها على

وشك الانهيار، ولعل اكثر الأصوات إزعاجا لنا تلك اللحظات، هي المنبعثة من اهتزاز الستائر المعدنية التي تصدر أصواتا أشبه بفحيح الأفاعي.

هتف طاهر لنترك المكان، إلى أين؟ هل لديك اقتراح محدد؟

إلى الشارع، لم تكن فكرة الشارع موفقة، إلى أين؟ وكأننا اتفقنا بالنظرات، لنبق هنا،

هل لك يا طاهر أن تصف حالتنا الآن؟

لم يتحرك طاهر عن مقعده وقال بهدوء: إننا، بالضبط، مسلمون أمرنا لله.

في زمن الحرب حيث القصف المستمر واحتمال الموت، يلوذ الإنسان إلى اختراع السكينة، بالتعود أو المكابرة، ولقد تذكرت في تلك اللحظة، كلمات كان قد قالها لي صديقي الحبيب ماجد أبو شرار، حين اجرى عملية جراحية، احس بعدها بألم حاد، ولم يتعاط المسكنات للتغلب على الألم، قال لي يومها: إن قهر الألم يمكن أن يتم بالتعايش معه والتعود عليه ومصادقته، وها نحن الآن نتعايش ونتعود، ولكن!!

كانت الطائرات الإسرائيلية، تملأ سماء بيروت، وكلما ضقنا ذرعا بالجلوس في الغرفة المغلقة كانت تسليتنا الوحيدة مراقبة الطائرات التي كانت تتخذ من منطقة تواجدنا طريقا تسلكه أثناء إغارتها على الضاحية الجنوبية، كنا نشاهد البالونات الحرارية تتساقط من الطائرات، وكأنها ألعاب نارية، وكنا نعجب لهذا التدبير الاحترازي نظرا لمعرفتنا بحجم مقاوماتنا الأرضية، التي تكاد لا تذكر قياسا لما وصل اليه التسليح الحديث من وسائل عصرية في مقاومة الطائرات، غير أننا نجد الجواب وهو الخوف.

نعم، إن الطيارين الإسرائيليين يخافون من مقاوماتنا الأرضية، خاصة بعد أن تمكنت هذه المقاومات الأرضية المتواضعة من إسقاط عدد من الطائرات، وحين كنا نشاهد طائرات "الكفير"، ونسمعها وهي تجأر

كوحش في السماء متأهبة للانقضاض على أكواخ المخيمات والأحياء الفقيرة في بيروت، كان الألم يعتصر قلوبنا، فيرتسم على شفاهنا سؤال مرير أين الطائرات العربية؟ إن خروج خمس طائرات عربية لمواجهة هذا الجنون الإسرائيلي الطائر، من شأنه على الأقل أن يريحنا بعض الوقت ويبعدنا لو لساعة واحدة عن جحيم هذا الاستفراد المأساوي بنا.

تذكرت كلام أبو الوليد، غير أنها ومهما كانت منطقية لم تمنعني. وهذا ما فعله الجميع. من الكتابة بسخط ظاهر، ضد الطائرات الملفوفة بالقماش والنائمة ببلاهة واستكانة مزرية في مخابئها، انتظارا لعرض عسكري تحتفل فيه بيوم الاستقلال أو بأيام أخرى تحمل – يا للمفارقة – أسماء أعياد تعطل المدارس من أجلها، لتكتب في السماء بأجنحتها أسماء لهذا الزعيم أو ذاك.

***

أين وصلت الحرب الآن؟

هل هي حرب حقيقية أم أنها مجرد سلسلة متلاحقة من القتل والتدمير تنفذها مؤسسة عسكرية اتيحت لها إمكانات قتل وتدمير فوق تصور البشر، وما هي بيروت الآن؟ هل هي تلك المدينة التي كانت تستلقي باسترخاء على شاطئ المتوسط؟ هل هي مثل كل العواصم تغرق كل مساء تحت طوفان من الأضواء ومهرجانات الليل، أم أنها عاصمة العالم والتاريخ؟ تستقبل في بضع ساعات مئات الألوف من القذائف، لتنهض في اليوم التالي راسخة كجبل، قوية مثل فرس جامحة، تنشر صهيلها الرائع في جهات الأرض الأربع.

أية مدينة أنت يا بيروت؟ أية مهرة متمردة، أية عاصمة بل أية صلاة؟ كان لا بد أن تكتب هذه المعاني، وان ترسم هذه الصور لبيروت الملتصقة بنا في عناق عميق ودافئ. مئتان وعشرون الف قذيفة تساقطت على بيروت في عشر ساعات والعالم الذي منح بيغن جائزة نوبل للسلام،

يسمع ما يجري، ويشاهد على شاشات التلفزيون المباريات النهائية لبطولة العالم في كرة القدم، ويشاهد صورا حية للمدينة المحاصرة وهي تحترق، ورغم انه كان مذهولا من إعجاز البطولة والصمود والتحمل، إلا انه بقدر ما، لم يكن بوسعه فعل شيء يذكر، سوى انه وقف طيلة أيام الحرب مع ضميره، وكأنه يتفاعل مع فيلم دراماتيكي طويل تأتي صوره الدامية من وراء الكون.

كان الناس في بيروت، أشبه بجملة عصبية متحدة، تهدأ في وقت واحد، وتتوتر في وقت واحد، وكنا في الإذاعة اكثر من يستشعر هذا الوضع المتميز والنادر، فهل غير الإذاعة من يجد نفسه ملزما بمخاطبة الناس في كل الأوقات والظروف.

لقد حدث ذات يوم، وحين كان الحصار يكتمل حول بيروت، أن شهدت المدينة وضعا جديدا تماما، حين أمطرت السماء ملايين المنشورات تدعو قوات الردع العربية إلى الانسحاب وفق خطوط محددة على خريطة مرفقة بالمنشور. وكانت هذه المنشورات تحمل دعوة عامة إلى سكان بيروت، تطالبهم بالهجرة الجماعية، لأن المدينة ستدمر بالكامل، ولقد كنا في الإذاعة، أوّل من التقط هذه المنشورات، وكان لا بد لنا من معالجة الموقف على الفور.

وفي حالة بالغة الخطورة كهذه، لا يجوز التعاطي معها بعفوية وارتجال، وإطلاق النداءات العاطفية الصرفة، فلم يكن بوسعنا إغفال حقيقة مهمة، وهي أن الذين أسقطوا هذه المنشورات يتملكون البحر المشرع بلا نهاية على بيروت، ويمتلكون السماء المكتظة بالطائرات الحربية، ويمتلكون فوق ذلك كله قرار الإبادة. وهم على استعداد لتنفيذه بلا هوادة، مطمئنين إلى أن صرخة "وامعتصماه" التاريخية تلاشت في وهاد التاريخ القديم، وتكسرت على أعتاب العواصم العربية، فلامست أسماع الجميع في وقت لا معتصم فيه سوى أولئك المحاصرين في جزيرة بيروت، التي كانت تحترق وتكابر بعناد لا يصدق.

ما العمل؟ هل نقول للناس: لا تصدقوا منشورات القتلة؟

هل نقول للناس والأطفال: قاتلوا بأيديكم؟

هل نقول لهم: إتقاء لشر الموت، اخرجوا من بيروت؟

إن مخاطبة الجمهور في حالة كهذه، تحتاج إلى اقصى درجات الدقة والحساسية والمسؤولية، أجريت اتصالات متعددة مع الأخوة في القيادة، ثم دعوت إلى اجتماع استثنائي لجميع كادر الإذاعة، وتفحصنا المنشور بدقة، قرأناه عدة مرات، وطرحت في الاجتماع أفكارا عديدة، واتفقنا في نهاية الأمر، على إن نخاطب الجمهور المضطرب، بأسلوب حواري بعيد كل البعد عن التوجيه المباشر، الذي يتخذ في معظم الأحيان صيغة التعليمات والأوامر، وكانت خطوطنا العامة للمخاطبة على النحو التالي:

أولا، إن الغرض من هذه المنشورات هو ضرب وخلخلة البناء النفسي للمقاتلين والجماهير، حتى تتمزق المدينة من داخلها، وتصبح لقمة سائغة للغزاة.

ثانيا، إن حث الشعب على مغادرة المدينة ينطوي على هدف بعيد كل البعد عن الحرص على سلامة المواطنين، إذ أن المطلوب هو تفريغ المدينة، وتحويل مئات الألوف إلى لاجئين، واستباحة ممتلكاتهم وأرواحهم، خاصة وأن المناطق التي يقول المنشور إنها آمنة تخضع للسيطرة الإسرائيلية، وهذا أمر يحول اللاجئين الجدد إلى رهائن، وخاصة أن آلاف المعتقلين في الجنوب هم من المدنيين الذين خدعوا بوعود الأمان، فكانت معسكرات الاعتقال بانتظارهم.

ثالثا، إن القوات المشتركة لن تخضع لهذا النوع من الابتزاز الإسرائيلي، وستقاتل الغزاة في كل موقع. وعلى ضوء هذه الحقائق والمنطلقات فإننا نثق بحسن تصرف الناس من واقع ثقتنا بالأصالة الوطنية التي يتحلون بها، ولكي لا تظل مخاطبتنا للجمهور مقتصرة على التعليقات والنداءات فقد أوعزنا لمندوبي الإذاعة بالانتشار في

جميع أنحاء بيروت وإجراء الحوارات والتسجيلات مع عدد كبير من المواطنين لبلورة التفاعل الإيجابي، وتوسيع قاعدته على أوسع مساحة ممكنة.

كانت استجابة الجمهور جيدة إلى حد ما، رغم أن بعض الأسر التي لها منازل خاصة في المناطق الأخرى من بيروت توجهت إليها طلبا للأمان، ولم يكن من قبيل الصدفة أن يكتشف الذين غادروا، صدق ما قلناه لهم، وبعد أيام بدأت قوافل العودة إلى بيروت. الذين غادروا حملوا معهم تجربة خلاصتها قرار الصمود حتى النهاية، ولقد ظهرت هذه النتيجة المذهلة في أوضح صورها، حين انقطعت قوافل النازحين، وامتلأت بيروت بأهلها من جديد، ولم تفلح القنابل اليومية في زحزحة الناس عن بيروت حتى يومنا هذا.

انتهى يوم الطيران عند الساعة الخامسة مساء، واستمع الناس في تلك اللحظات إلى اعتراف إسرائيلي مفاده أن عدد القنابل التي أسقطوها على بيروت خلال الإحدى عشرة ساعة الماضية بلغ مائتين وثلاثين ألف قنبلة، وأن غارات الطيران التي شارك فيها كل سلاح الجو الإسرائيلي لمناسبة ذكرى تأسيسه، تجاوزت المائتين وخمسين غارة وهذا رقم قياسي لم يسبق أن سجل في أية حرب على مدى التاريخ البشري فوق مدينة واحدة في ساعات.

عند الساعة الخامسة مساء، انبثق إنسان بيروت، انفجرت كوامن الحب والحياة على هيئة طوفان بشري ملأ الشوارع والساحات، كنا نقرأ الازدراء بالطائرات والقنابل على وجوه الأطفال الذين أقاموا حلقات صاخبة يسترجعون فيها من ذاكرتهم الغضة، صور الطائرات وهي تحلق أو تقصف. ويا لهذا الجيل النادر الذي عاش كل هذا الهول وكبر عليه، ومع أن لبيروت كل الحق في أن تزهو على كل العواصم بصمودها وتفردها، فلها أن تثق بهذا الجيل الذي زرعته في أحشاء الأرض العربية ليزدهر في الغد، ويطرح ثماره المباركة مجدا وانتصارا وأملا متجددا.

وقد لمس الأخ أبو عمار هذه المعاني العميقة التي جسدتها نظرات أطفال بيروت، وآثر أن يرسخها للتاريخ والمستقبل، في نداء حار موجه عبر الإذاعة لجماهير بيروت، وأطفالها العظام.

ما أروع الحب حين يزدهر في زمن الحرب، وما أحلى بيروت، حين تطل على العالم كجزيرة خضراء، تحتضن عائلة صغيرة. وعائلة بيروت، ليس اسما حركيا لهذا المجتمع الصغير الذي يقاوم الحريق المشتعل من حوله، وإنما عائلة بيروت، هي المعنى الحقيقي لشراكة الواقع الدامي، والمصير المشرع على الغيب، لكأن اتفاقا شاملا حصل بين مئات الألوف من البشر على مدى ثمانين يوما من الحرب: أن يكون هؤلاء الناس عائلة واحدة، تموت أو تحيا على حلم واحد، ماذا يحمل الغد؟ لا احد يعرف بالضبط، لكن قرارا لا يحده زمان ولا مكان، كان قد اتخذ، ونفذ، والقرار هو: معاً، يا أفراد عائلة بيروت، وحتى النهاية.

ولقد كتبنا الكثير بهذا المعنى، كتب رشاد أجمل حلقات برنامجه اليومي "كلامنا بلدي"، وكتب ياسر عرفات على رأس صفحة من دفتر التاريخ "باسم بيروت نحاصر العالم".

***

كان في داخلي وهم لا أعرف مبرراته، وهو أن يوم الطيران السابق آخر أيام الحرب أو انه ذروة هذه الأيام، وقد اخترعت لنفسي مساحة من السلم، أعيش فيها مع الذكريات الخاصة، كنت متأكدا من أن أياما قليلة تفصلني عن لحظة مواجهة الحقيقة القاسية، حقيقة الرحيل عن بيروت.

ومع إنني لم أتعامل في يوم من الأيام مع هذه المدينة وكأنها وطن أو مستقر، إلا أن كل شبر فيها يحمل ذكريات لا تنسى، تجعل من الفراق وكأنه اقتلاع للإنسان عن عالم أحبه وتعلق به بعمق خاص، وكاد أن يموت مائة مرة من اجل الاحتفاظ به.

كنت افتش في ذاكرتي عن حكايات بعيدة عن واقع الحرب، فلم أجد، وكيف لي أن أجد في داخلي شيئا كهذا؟ لماذا هاجرت من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية في عام ١٩٦٨؟ كان ذلك بسبب الحرب، ولماذا هاجرت من الضفة الشرقية إلى دمشق في العام ١٩٧١؟

ولماذا هاجرت من دمشق إلى القاهرة في العام ١٩٧٢؟

ولماذا أهاجر من بيروت إلى أي مكان في العام ١٩٨٢. ذلك كله بسبب الحرب. لم تكن هجرتي قرارا بالبحث عن الأمان في أي مكان، فلقد كان حلمي يحملني، إلى جهات الأرض الأربع، وكانت الحرب قدراً يعيشه الفلسطينيون، وأنا واحد منهم في كل زمان ومكان، فكيف لي أن اجد ذكريات بعيدة عن كل هذه المنافي وكل هذه الحروب.

كنت جالسا على الشرفة أعيش لحظات سلم مخترعة، وكنت أراقب الناس وهم يتراصون بغير انتظام أمام الفرن المجاور، خليط من المدنيين يتلقفون أرغفة الخبز وينطلقون بها إلى منازلهم والسعادة ترتسم على وجوههم القانعة.

لاحظت سيارة كحلية تقترب من الفرن، وما أن توقفت حتى هبط منها أبو عمار، ومعه مرافقوه: فتحي وجمال وصلاح وعادل. ظننت للوهلة الأولى أن القائد العام سيزورنا في هذا الوقت المبكر، وطلبت من الزملاء المتواجدين في المقر، الإسراع في ترتيب إجراءات استقبال القائد العام، غير أن تقديراتي لم تكن في محلها، فلقد كانت زيارة القائد العام للفرن، ومن أجل عقد اجتماع مع طاقم العاملين فيه، للاطمئنان على حسن تنفيذ مهامهم في خدمة الجمهور والمقاتلين.

كان الظهور المفاجئ لأبي عمار، وسط الجمهور المحتشد أمام الفرن قد أحدث وقعا طيبا في نفوس الناس، الذين تسابقوا للسلام عليه ومعانقته. قضى الأخ القائد قرابة نصف ساعة في الفرن، علمت بعدها أنه أصدر أمرا باستمرار العمل على مدى أربع وعشرين ساعة متصلة،

وأن يتم توزيع الخبز مجاناً على المواطنين من الساعة السادسة صباحا حتى السادسة مساءً، أما المقاتلون فدورهم يأتي في الليل أي من السادسة مساء حتى السادسة صباحا، ولقد روى لنا القائد العام، في إحدى زياراته للإذاعة، واقعة جرت أثناء اجتماعه بطاقم الفرن، حيث طلب القائد العام من طارق أن يعمل بشكل متواصل حتى يؤمن حاجة الناس من الخبز، فأبدى طارق بعض اعتراض على هذا القرار، نظرا لقلة العاملين، حتى أنه قال للأخ أبو عمار: لو جربت أيها الأخ وقوف ساعة واحدة أمام بيت النار لعذرتني على الاحتجاج، فحل أبو عمار المشكلة بفرز عدد من طلبة الجامعات لمساعدة العاملين في الفرن، وعلّق أبو عمار على هذه الواقعة بالقول:

وهل نحن إلا في فرن يصهر الحديد، مساحته لا تزيد عن اثني عشر كيلو متر مربع؟

كان لا بد للإذاعة من أن تعالج، بقدر ما، إفرازات الحرب على المستوى الاقتصادي والاجتماعي، غير أن اعتمادنا الكبير على الإذاعة الشقيقة "صوت لبنان العربي"، الذي كانت باعه طويلة في معالجة هذه المواضيع الحيوية، جعلتنا نقتصد في هذه المسألة ونتناولها بشكل أقل من التركيز، وهذه نقطة سلبية تسجل في غير صالح إذاعتنا.

تكونت تجربة صمود بيروت، من عناصر متعددة ومتكاملة، ذلك أن وراء الخطوط الصامدة كالقلاع الراسخات على خطوط التماس، كان ثمة صراع من اجل تأمين سبل العيش لمئات الألوف من البشر المحاصرين في المدينة. فحين قطعت الكهرباء، كان بالإمكان الاستعاضة عن هذه الضرورة الحيوية، بمصابيح من الغاز والشموع والمولدات الصغيرة، ولكن حين قُطعت المياه وجدنا أنفسنا أمام تحدٍ خطير، تمت مواجهته بحفر آبار جديدة في أجزاء متعددة من المدينة.

وزيادة في تسهيل الأمور على المواطنين، تم نشر عدد من المولدات الكهربائية المحمولة على السيارات، لضخ المياه من الآبار الموجودة تحت

البنايات إلى الخزانات العليا، وأصبح بوسع المواطنين في معظم أنحاء بيروت الحصول على المياه بشكل شبه طبيعي. وقد لاحظنا النتائج من خلال اكتظاظ الأسطح والشرفات، بالملابس الزاهية النظيفة، حتى وصل الأمر بالبعض حد غسل السيارات والإسراف في استخدام المياه على نحو يُذكر بحياة بيروت قبل الحصار.

***

انظر، ما ابلغ هذه الصورة وما أعمق المعاني التي تحملها، ودفع لي الأخ أبو عمار بعدد قديم نسبياً من أعداد صحيفة السفير البيروتية، كانت الصورة رسما كاريكاتوريا للفنان العربي الفلسطيني الكبير ناجي العلي، الصورة تمثل بيروت على هيئة صبية حسناء تنحدر من عينيها دمعة كبيرة، وتبتسم لمقاتل، من القوات المشتركة، يقدم لها وردة.

وانهمكت في قراءة بعض التقارير التي كان القائد العام قد أحالها لي، وهي ذات صلة بعملي الإعلامي، فرغ أبو عمار من أداء الصلاة، جلس على مكتب صغير على صدر الغرفة، وحتى هذه اللحظات كانت بيروت هادئة تماماً، وكان دبيب الحياة الطبيعية العادية يملأ أرجاء المدينة. وكانت غرفتنا الصغيرة الواقعة اسفل الشارع العام، تهتز تحت وطأة حركة السيارات النشطة في الخارج، قال أبو عمار وهو يراجع كومة من الأوراق:

يبدو لي إنه الهدوء الذي يسبق العاصفة.

لم اجد في نفسي القدرة على إبداء وجهة نظري بأن الحرب على ما يبدو قد وضعت أوزارها، وأن اليوم السابق العنيف كان نهاية أو ذروة أيام الحرب، غير أني سألت القائد العام: هل هنالك احتمال بتصعيد جديد، إن الجميع يتحدث عن ضغوط أمريكية مكثفة لحمل إسرائيل على وقف القصف الجوي.

اعتدل أبو عمار في جلسته، والقى القلم جانباً، وقال بلهجة حاسمة: إن ما يقال عن ضغوط أمريكية هو مجرد محاولة للتنصل من الجرائم المروعة التي يرتكبها الإسرائيليون بالسلاح الأمريكي، إنني على استعداد لتفهم الغضب الذي يصدر عن هذا المسؤول الأمريكي أو ذاك تجاه بيغن أو شامير، فالأمر لا يتعلق بالرأفة بالمدنيين أو بنا، وإنما لمداراة الفضيحة، واثرها على صورتهم أمام المنطقة والعالم، فبدأوا بإطلاق التصريحات الغاضبة، إن لدينا معلومات دقيقة عن شيء جديد، حصل فيه الإسرائيليون على الضوء الأخضر الأمريكي، لهذا فلا بد من مضاعفة الحذر واليقظة.

تطايرت أوهام انتهاء الحرب التي نسجتها، أو اخترعتها، استنادا لمؤشرات تبين لي أنها لم تكن كافية للوصول إلى هذه النتيجة، فماذا يريد الإسرائيليون والأمريكيون؟، إن ترتيبات الخروج من بيروت، وصلت إلى مرحلة شبه نهائية عبر المفاوضات الدائرة مع المبعوث الأمريكي فيليب حبيب، هل يريدون إبادتنا؟ لقد حاولوا على مدى الأشهر الماضية، ونفذوا سبع عشرة محاولة لاقتحام بيروت، إذن ماذا يريدون بالضبط؟

كانت الوقائع المتسارعة تجيب بشكل حاسم عن كل التساؤلات التي تثور في فترات الهدوء القصيرة، وكان هدير الطائرات التي تناهى من بعيد إلى مسامعنا بمثابة مقدمة للجواب.

أصدر أبو عمار تعليمات لعاملة الجهاز بالتوقف عن العمل، وأمر فتحي باستطلاع الأجواء، والتأكد مما إذا كانت الطائرات الإسرائيلية قد عادت من جديد، وبعد لحظات عاد فتحي يبلغ القائد العام بعدم وجود طائرات في الجو مستنتجا أن الصوت الذي نسمعه، هو بفعل اهتزاز الشارع المجاور الذي تقع الغرفة دون مستواه، غير أن الصوت بدأ يقترب واصبح واضحا لنا جميعا، إنه صوت طائرة تحلق على علو مرتفع وهنا حضر أحد الضباط وطلب من القائد العام تغيير المكان، وبالفعل انتقلنا إلى مكان آخر.

في الموقع الجديد أعد القائد العام ردوداً على ثلاث رسائل كان قد تلقاها في الصباح من الزعيم السوفييتي ليونيد بريجينيف، والرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران، والملك السعودي فهد، وأوعز القائد لأحد مرافقيه ببث الرسائل عبر الأجهزة الخاصة، وتسليمها بعد ذلك إلى أحد مقرات وكالة الأنباء الفلسطينية، لتولي نشرها وتسليم نسخ عنها لسفارات الدول المعنية.

الساعة الآن الثانية ظهراً، وصوت الطائرات ينذر بأنها في وضع انقضاض على هدف ما، اهتزت البناية التي كنا نجلس في دورها الخامس، وسمعنا صوت انفجار مكتوم، واعترانا بعض القلق من هذا النوع الجديد من الانفجارات، انتشر عدد من المرافقين لمعرفة الهدف، وبعد دقائق قدم كمال مدحت تقريره المختصر:

تم تدمير بناية عكر بالصنائع تدميراً كاملا ويبدو أن جميع السكان قد فارقوا الحياة. ارتسمت أمامي صور البنات والأولاد الذين كانت تمتلئ بهم طوابق العمارة المدمرة، فقد كنت اعرف أن هذه البناية بالذات تضم مئات المسيحيين الفلسطينيين، الذين كانوا يعيشون قبل سنوات في مخيم ضبية بالمنطقة الشرقية من بيروت، وتم تهجيرهم بعد الاجتياح الكتائبي الشهير للمخيم إلى منطقة الدامور، وحين وصل الإسرائيليون إلى الدامور، لاذوا ببيروت ليواجهوا قدرهم المحتوم على هيأة موت جماعي تحت أنقاض عمارة قصفها الإسرائيليون بما عرف فيما بعد بالقنبلة الفراغية، ولقد هزني تخيل الأولاد والبنات الذين شاهدتهم في الصباح على الشرفات، وهم الآن جثث ممزقة تحت الحطام، وادركت أن هذه المقتلة هي إشعار بأن الحرب لم تنته بعد.

أجريت اتصالات بالإذاعة، وعرفت من الزملاء أن الإذاعة الكتائبية أعلنت بأن تدمير بناية عكر، تم بناء على اشتباه إسرائيلي بتواجد ياسر عرفات في ذلك الموقع، وإمعانا في تبرير هذه المجزرة دست الإذاعة

المذكورة خبراً يقول إن احد القادة الفلسطينيين البارزين يتواجد الآن تحت الحطام. وكانت صياغة الخبر توحي بأن المقصود هو ياسر عرفات بالذات، ولكي يكملوا جريمتهم وضعوا سيارة مفخخة بالقرب من البناية المقصودة، وسرعان ما انفجرت لتوقع عشرات الضحايا، إنه تنسيق محكم بين طيران شارون وبيغن ومخابرات عملائهم.

ماذا بقي على الإسرائيليين أن يفعلوا؟

عرف العالم في تاريخه أنماطا متعددة من الحروب المفتوحة والاغتيالات، غير أن ما حدث لبناية عكر، وما حدث قبله لبنايات مشابهة، أضاف إلى أحداث التاريخ صوراً جديدة لم يألفها من قبل، هي محاولات اغتيال بالطائرات تتم في وضح النهار لاصطياد رجل كان قبل ساعات يوزع الخبز على الناس بيديه، ويخاطب أهم زعماء العالم كقائد لشعب وثورة، ويدير وضعاً بالغ التعقيد تحت الحصار، فيجمع العالم على أنه اهم رجل واقدر الناس على قيادة السفينة في بحر مسيج بالنار تتلاطم على سطحه وفي أعماقه أنواء وأعاصير لا مثيل لضراوتها في التاريخ المعاصر، ما الذي يجري بالضبط؟

لم يكن من الجائز لياسر عرفات، أن يعرف ما يحيط به معتمدا على الاستنتاجات المحضة، فالرجل الذي يقود واحدة من أخطر حروب المنطقة، ويتحصن في أصغر العواصم لا بد وان يؤمن لنفسه مصادر معلومات دقيقة.

ناولني القائد العام ترجمة لرسالة وصلته في الصباح من أحد الأصدقاء في الولايات المتحدة الأمريكية، وقال لي إذا أردت أن تعرف سر ما حصل اليوم لبناية عكر، فأقرأ هذه الرسالة بإمعان تقول الرسالة:

"الصديق العزيز ياسر عرفات، تحية، إن التفاعلات السياسية التي أحدثها صمودكم العظيم في بيروت، بدأت تتجه تماما لصالح القضية الفلسطينية، ومنظمة التحرير بالذات، وهذا أمر مزعج للذين هناك في

تل أبيب، وإن خروجكم من بيروت بالطريقة التي يجري الحديث عنها سيكون بمثابة هزيمة جزئية للاجتياح الإسرائيلي، وبالمقابل يشكل انتصارا سياسيا هاما لمنظمة التحرير، لهذا أنصحكم بتوخي الحذر واليقظة، فكل ما يقال عن ضغوط أمريكية على إسرائيل كلام غير جدي، والأيام القادمة حرجة ودقيقة للغاية، ويتحدثون هنا بصوت هامس عن عملية خاصة ومن نوع جديد، فاحذروا الأيام القادمة ولا تدعوا زمام الموقف يفلت من أيديكم، حتى الآن أنكم تعملون بصورة ممتازة، إنهم باختصار لا يريدون لقيادتكم التي أدارت المعركة في بيروت، إن تخرج سالمة لاستخدام التفاعلات السياسية الكبرى التي أحدثها صمودكم".

اتضحت الصورة تماما بعد قراءة هذه الرسالة وازدادت وضوحا حين أعلن الأمريكيون ـ بطريقة ما ـ أن قصف بناية عكر لا يعتبر انهياراً لوقف اطلاق النار، مع أمل بأن تكون العملية "الخاصة" هي "الأخيرة".

إن أهم الشروط التي يجب توافرها في الكادر الإذاعي، وعلى وجه خاص الكادر القيادي فيها، معرفة قدر كبير من المعلومات حول الموقف السياسي، وما يحيط به من مؤثرات. ذلك أن التعبير عن الموقف السياسي يجب أن ينطلق من وعي عميق لمكونات هذا الموقف، وشبكة التحالفات المتصلة بها وآفاق كل تحالف تقيمه الثورة مع القوى المختلفة التي تشكل أطراف اللعبة السياسية في دوائرها العربية والعالمية.

وقد كنّا في الإذاعة، نستقي معلوماتنا في الظروف العادية أو الاستثنائية من المصدر القيادي المسؤول الذي هو رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، ونادراً ما كنا نتلقى توجيهات على صعيد مهمات العمل اليومي. فهذا الجانب من العمل هو من صميم اختصاصنا، وقد كنا قليلي الأخطاء السياسية، نظراً لاطلاعنا المستمر على المعلومات الكافية التي تشكل مضمون معالجاتنا اليومية للأحداث، كما كنا نحس بأننا شركاء في العملية السياسية، والقرار السياسي، وهذا ما جعل تعليقاتنا وتحليلاتنا،

بالغة التأثير والمصداقية، فلم نشعر في يوم من الأيام أننا مجرد موظفين يتلقون الأوامر وإنما كنا مؤهلين فعلا لأن نقول رأي الثورة كما يجب أن يقال، حتى لو انقطع اتصالنا المباشر بالقيادة لبضعة أيام أو اشهر، مع أن هذا في الأساس نادر الحدوث. كنّا جميعا نعيش في دائرة ضيقة بفعل الحصارٍ إلا أن التوسع في إجراء اتصالات مباشرة مع القيادة لم يكن ميسوراً كما كان الأمر عليه في الظروف العادية، ورغم ذلك كنا متطابقين إلى أبعد الحدود، مع الخط السياسي العام، ولدينا القدرة على إيجاد إجابات سريعة عن جميع الأسئلة المطروحة. وقد لمسنا ذلك على صعيد تناول الأجهزة الإعلامية أو المحايدة لما يقدم في الإذاعة من تحليلات، فلقد كانت تؤخذ في كثير من الأحيان كمؤشر دقيق على موقف الثورة.

ونظراً لأننا بحكم الوضع الخاص للشعب الفلسطيني، لا نملك مؤسسة إذاعية متكاملة وإنما، كنا ولا نزال، مجرد إذاعة ميدانية تنطلق من المنافي القريبة أو البعيدة، فإن ذلك حتم علينا تركيزا استثنائيا في إعداد الكادر سياسيا وثقافيا ومهنيا، على نحو يتيح للكادر القيادي فرصا واسعة للمبادرة والاعتماد على النفس، وإداء مهمات متعددة في وقت واحد. وهذا ما فسر معادلة إذاعة "صوت فلسطين" الاستثنائية، التي تقوم على أساس قلة عدد الكادر مع غزارة الإنتاج.

لقد دخلنا في الظروف العادية إلى وضع كنا نبث فيه ١١ ساعة يومياً، وبلغات ثلاث، وكان عدد العاملين لإنتاج هذه الساعات الطويلة لا يتجاوز الثلاثين كادرا بين مذيع ومحرر وفني وإداري، في حين أن مثل هذا العدد في الإذاعات الأخرى مخصص لأقل من ثلث هذه الساعات، ولو وضعنا في الاعتبار حجم المادة الأخبارية والسياسية والبرامجية المتنوعة فإننا نجد أن ال١١ ساعة التي كنا نبثها في الظروف العادية، توازي بكثافتها ما يبث على مدار ثمانية أيام في الإذاعات الأخرى، التي يمكن أن تقدم سهرات غنائية وبرامج ترفيهية وموسيقية طويلة تمتد لساعات، في حين أن مثل هذا النمط من العمل الإذاعي لم يكن معترفا به في إذاعتنا، التي لا يتجاوز معدل النشيد فيها أو الأغنية ثلاث دقائق.

الاختصاص في العمل الإذاعي أمر جيد، له مزايا عديدة، كتأمين فرص الإبداع والتطور على الصعيد المهني والجمالي، لكن مثل هذا الأسلوب في العمل الإذاعي لا يمكن أن يكون عمليا بالنسبة لإذاعتنا التي هي في الأساس، كما أشرت آنفا، إذاعة ميدانية وغير مستقرة، فضلاً عن أنها وبحكم كونها إذاعة سياسية وثورية لا تستطيع ملء الفترة الزمنية بالمواد الترفيهية من تلك التي تمتلئ بها الإذاعات الأخرى، وأغلبها يشترى من السوق دون أن يبذل فيه جهد أبداعي يذكر، غير أن ذلك لا يعني أن تظل إذاعة الثورة جامدة، وأن لا تطور نفسها ضمن إطارها السياسي الملتزم مع احتفاظها بطابعها المميز، ونكهتها الخاصة بها.

ومن خلال التجربة الطويلة اكتشفنا إمكانات كبيرة للتطور تبدأ بنشرة الأخبار التي يمكن أن تكون نافذة يطل منها الإنسان على أحداث الثورة وأحداث العالم كله مروراً بالمادة السياسية، التي يجب ألا تكون على هيئة بيان يقرر الحقائق، ويأمر الجمهور بالالتزام بها، وإنما يجب أن تأخذ طابع الحوار والإقناع بعيدا عن الصيغ النمطية المسلم بها.

وفي هذه النقطة بالذات وجدنا أن التعليق السياسي، ولكي يكون مؤثرا ويحتوي على عناصر الإقناع الكافية لا بد من انطلاقه من حدث راهن، وليس من منطلقات عامة، متضمنا عرضا ذكيا لوجهة النظر الأخرى في القضية المراد التعليق عليها، وإظهار الجوانب السلبية في الآراء الصادرة عن الطرف الآخر، ومواجهتها بالحقائق الملموسة بكل وضوح دون أن يكون التعليق السياسي دفاعياً، وهذا يعني أن تُناقش حتى المسائل التي تبدو وكأنها محرمات.

فكثيراً، ما كنا نبدأ التعليق السياسي بعبارة تقول "نستمع إلى آخر تعليقات آرييل شارون، الذي قال اليوم: إن الثورة الفلسطينية انتهت إلى غير رجعة". ولكي نوصل المستمع إلى اقتناع لا بد من سرد وقائع عديدة تلتقي جميعها عند هدف واحد، وهو عدم صحة ومنطقية التصريح المشار اليه. وهنا يجب الابتعاد عن العبارات النظرية والإنشائية في المعالجة والتركيز على معلومات آنية يفضل أن تكون مستقاة من مصادر معادية

أو مستقلة أو تكون معززة ببراهين واقعية. ففي مواجهة زعم شارون مثلا نستشهد بتصريح لأحد نواب الكنيست، الذي يعلن فيه صراحة استحالة القضاء على الثورة الفلسطينية حتى لو خرجت من لبنان، ونعزز هذا الاستشهاد، برأي آخر لمصدر أمريكي أو محايد، ونمزج ذلك بالموقف في الوطن المحتل أو على صعيد العالم، لنصل وعبر سياق منطقي متسلسل إلى نتيجة حاسمة، وهي استحالة القضاء على الثورة.

ولقد تناولت هذا النموذج لأنه يتعلق بمسألة استراتيجية كنا نواجهها بشكل يومي خاصة في زمن الحروب الكبيرة، أما المسائل التكتيكية التي تتعلق بمجرى معركة محددة، فكان لها أسلوب آخر في المعالجة، يعتمد بشكل أساسي على اصطياد أخطاء الخصم، وما أكثرها حين تدرس كل كبيرة وصغيرة تصدر عنه.

فمثلا حين قدم رئيس أركان الجيش الإسرائيلي تقريرا عن الوضع العسكري للقوات المشتركة في بيروت المحاصرة، وقال فيه إنه لم يعد لدى هذه القوات سوى مدفع واحد، وأن قدرتها على الصمود تتلاشى بسرعة، كان ردنا على هذه المعلومات يستند إلى بلاغات عسكرية إسرائيلية وخبر كتائبي قيل فيه إن مدفعية "المخربين" في بيروت الغربية، قصفت المواقع الإسرائيلية بما يقرب من ثمانية عشر ألف قذيفة في يوم واحد، وانهينا التعليق بسؤال: "وهل هناك مدفع واحد يستطيع اطلاق ثمانية عشر الف قذيفة في يوم واحد؟ إن على رئيس الأركان الإسرائيلي أن يكون اكثر حذرا في المرة القادمة". لم نكن بالطبع مضطرين للقول إن لدينا كذا مدفع في حالة العمل، ولكن الذي حدث أن مدفعية القوات المشتركة هي التي أثبتت كذب مزاعم إيتان، ولم يكن علنيا إلا نقل صورة واقعية لما حدث.

حالة أخرى سوف أشير اليها، يوم روّج الكتابيون عبر إذاعتهم وصحفهم وإشاعاتهم، إلى أن "حركة امل"، وأهالي حي الشياح سوف يسلمون الحي للجيش اللبناني، أو لميليشيات الكتائب، أو حتى للجيش الإسرائيلي، ضاربين على وتر الطائفية، وعلى أوهام

بعض النفوس المريضة مستغلين بعض الثغرات التي تكونت في مراحل سابقة. ولما كان الشياح حيا وطنيا عريقا قاتل أهله ببسالة نادرة خلال الاجتياح فكان لا بد من الدفاع عن الحي معبرين بذلك عن مشاعر الأكثرية الساحقة فيه، أشرنا بوضوح إلى القتال البطولي الذي واجهت به قوات أمل جيش الغزو في خلدة والجنوب وبيروت جنبا إلى جنب مع أخوتهم في القوات المشتركة ودفعنا الكرة إلى مرمى الخصوم حينما ذكرنا أهلنا في الشياح ذي الأكثرية الشيعية، بموقف الإمام الشهيد الحسين بن علي يوم خُيّر بين الاستسلام والموت فأطلق صيحته المشهورة: لقد حشروني بين السلة والذلة، وهيهات منا الذلة.

وجاء من يقول لنا، إن دفاعكم بهذا الشكل عن الشياح وأهله له صدى طيب في نفوس الناس، ولقد أصبتم الهدف بدقة، ورددتم الرمية إلى راميها، ولقد تواتر ذلك مع الموقف الوطني لحركة أمل والأصالة الوطنية لسكان الحي، فكان لحملتنا المركزة مفعولها العميق والمؤثر، ولم يدخل الإسرائيليون وعملاؤهم الشياح الذي بقي قلعة وطنية فقصفوه بعنف لكنه صمد حتى النهاية.

إلى جانب ذلك لم تنجر إذاعتنا إلى الجوقة التي كانت تحاول طعن الجبل وسكانه في وطنيتهم، بل دافعت عنهم بروح الشعور بالمسؤولية الوطنية العالية والتحالف الأكيد، ضد العدو المشترك، وقاتلت إذاعتنا مع أبطال الجبل فرسان بني معروف، عبر منطلقاتنا وتعليقاتنا وتحليلاتنا، ضد ميليشيات الجبهة اللبنانية التي تسللت إلى الجبل وراء الدبابات الإسرائيلية محتمية بالزخم العسكري الإسرائيلي.

وكانت ردودنا على الإشاعات المغرضة عميقة عمق ارتباطنا الوطني بقضيتنا، وبلا مقدمات أو تعليقات، كنا نعرف دورنا الذي مارسناه فوراً عبر صوت فلسطين، ثم جاءت تعليقات القيادة لتؤكد موقفنا الصحيح، فما حصل من أخطاء في هذه المنطقة أو تلك كانت تفاصيل، أما العنوان العريض فقد كان دوماً:

لا للاحتلال وعملائه، القتال ومزيدا من القتال ضد جيش الغزو والمحتمين بحرابه.

أعود إلى مسألة، وأعرض، هنا، بعض فرص التطوير التي اكتشفناها على صعيد الموسيقى والغناء، حيث بدأت إذاعتنا في صوت العاصفة عام ٦٨ بمجموعة من الأناشيد والأهازيج الجديدة التي تتميز بنصوص ملتزمة وأداء جماعي، وسرعة في الإيقاع تتلاءم مع المعاني والوضع العام الذي يحيط بالثورة، وتحول بعضها إلى شعارات ترتفع في المظاهرات والانتفاضات داخل الوطن المحتل.

ورغم هذا النجاح المذهل للأناشيد وأهازيج صوت العاصفة، إلا أن الاقتصار عليها أو على نمطها كاد يعرض الإذاعة إلى الجمود والرتابة، فضلا عن كونه يعطي صورة ناقصة عن ثراء الفن الفلسطيني والثقافة الفلسطينية، لذا طرقنا بابا جديدا كان على وجه التحديد: الفلكلور والفن الشعبي والأشكال الغنائية، التي ترسم صوراً جمالية مؤثرة لحياتنا الفلسطينية وثقافتنا الوطنية.

ونظرا إلى أن الغناء والموسيقى الشعبية لها فعل سحري في النفوس، كان لا بد من اعتماد هذا الفن كوسيلة تعبوية رئيسية، ومن هذا المنطلق جاء برنامج "غنى الحادي"، الذي أبدع من خلاله الفنان الشعبي الفلسطيني، المغفور له، يوسف حسون. وعلى مدى مئة حلقة من هذا البرنامج الناجح سمع الجمهور نمطا جديدا من الفن، فيه روح التراث ونبض الواقع المعاش، فلم يكن برنامج "غنى الحادي" مجرد ربع ساعة من المواويل الشروقي والعتابا والميجانا تقال للتسلية والتذكير برائحة الوطن فقط، بل كان معالجة سياسية واعية ملتزمة لمواضيع مطروحة على شعبنا وثورتنا.

في هذا الاطار ولدت أيضا أغنيات الفنان الشعبي "أبو عرب" الذي يفاخر بأنه لم ينطق في حياته بأغنية واحدة تمجيداً لشخص أو لموقف سلطوي، وإنما غنى لفلسطين وشعبها وثورتها وطموح انتصارها الحتمي.

لم يكن الباب الفلكلوري هو الوحيد الذي نطرقه في محاولات التطوير، فهناك الصور الغنائية ذات العناصر المتعددة، منها مثلا صورة عملية الشاطئ التي نفذتها الشهيدة دلال المغربي ورفاقها في عمق فلسطين عام ٧٨، وصورة البحارة التي تجتمع فيها عناصر عديدة من حياتنا الفلسطينية وما تصارعه على مدى عمر القضية وفي زمن الثورة، وكذلك سكتش " سرحان والماسورة" عن قصيدة الشاعر الكبير توفيق زياد وغيرها من الصور الغنائية ذات الصبغة الحديثة.

التطور الإذاعي، يجب أن يتم بخطى سريعة ولكن مدروسة في عالم يتطور بسرعة، ولقد أشرت في الصفحات السابقة إلى نِعَمْ، المذيعة الشهيدة، التي طرحت مسألة التطوير في زمن الحرب والحصار. ولم أتوسع في عرض تجربتنا في هذا المجال، مؤثرا التريث إلى وقت استطيع فيه التخلص من انفعالاتي الشخصية، التي تثور في داخلي كلما لاح طيف نعم عبر ذكرياتها الجميلة والمؤلمة.

وسأحاول خلال الصفحات القادمة أن اعرض تجربة التطوير في إذاعتنا أثناء الحرب والحصار، تلك التجربة التي ولدت من أحشاء الحاجة الملحة، واتسمت بطابع الحرب والحصار في كل تفاصيلها.

في الظروف العادية، كان اختيار الكادر الإذاعي، يخضع لاعتبارات محددة بدقة خاصة على الصعيد السياسي، وكان بدهيا أن يتم الاختيار على قاعدة الالتزام السياسي بالموقف الرسمي لمنظمة التحرير الفلسطينية، المنطلق من برنامجها السياسي، والمحدد بقرارات اللجنة التنفيذية وتوجيهاتها، وبالاطار العام.

معظم الكوادر الفلسطينية تلتزم بهذا، ولا تخرج في ولائها عن الاطار الوطني العريض، غير أن هذا ليس كل شيء، بل لا يكفي كمؤهل يمنح صاحبه حق العمل في الإذاعة، وتسلم مسؤوليات قيادية فيها، فلا بد من توفر عناصر أخرى أهمها استيعاب كافة الخطوات السياسية

التكتيكية التي تقدم عليها القيادة في عملها، وامتلاك القدرة على تفسير هذه الخطوات وإقناع الجماهير بها.

وفي ساحتنا الفلسطينية، هنالك فهم خاص للعمل الجبهوي في اطار التقاليد الديمقراطية التي نتمسك بها جميعا. فهنالك قطاع لا يستهان به من المثقفين والصحافيين والكتاب يفهم العمل الجبهوي في الاطار الديمقراطي، على انه يمنح الحق للفرد بأن يمارس اعتراضه بالطريقة التي يراها مناسبة، وأن يستخدم كافة المنابر المتاحة للتعبير عن هذا الاعتراض، دون التقيد بالمؤسسات والأطر التنظيمية، التي نمارس فيها حياتنا السياسية الداخلية، فيكتسب الرأي مشروعية ضمن المؤسسات وليس خارجها.

ولقد كان العديد من هؤلاء الإخوة الكوادر، يحجم عن التعاون مع الإذاعة لمجرد أنه غير مسموح له أن يبدي رأيه الخاص، بكل حرية، حتى لو كان هذا الرأي متعارضاً مع الخط العام الذي تلتزم به الإذاعة، وهو كما أشرت الخط الرسمي لمنظمة التحرير، ولقد حاولنا إيجاد حلول لهذه المعضلة بفتح الباب الثقافي أمام الجميع كتجربة نحاول الإفادة منها وتفتح الباب السياسي المباشر.

ولقد نجحت التجربة في المجال الثقافي عبر برنامج خاص يحمل اسم "ثقافة، أدب، فن"، فكان نجاحه حافزاً كافيا لفتح الباب السياسي، عبر برنامج يحمل اسم "البرنامج المفتوح" يستطيع المتحدث فيه أن يعرض وجهة نظره السياسية في حدث معين، حتى لو كان مخالفا للموقف الرسمي، وجاءت الحرب الأخيرة ونحن في قلب هذه التجربة، ورأينا أن الظرف أضحى ملائماً لتطوير المشاركة، واستقطاب عدد أكبر من الكتاب والصحافيين والفنانين الفلسطينيين واللبنانيين والعرب، وليس فقط من اجل النهوض بأعباء عمل إذاعي كبير ومكثف يتم في ظروف استثنائية، بل ومن اجل زرع بذور نمط جديد من العمل نجني ثماره في المستقبل، لتتكرس الإذاعة كمؤسسة وطنية كبيرة تغتني بالطاقات الإبداعية الهائلة، التي تتجمع من عشرات بل مئات المثقفين و الصحافيين والكتاب العرب والفلسطينيين.

وقد حدث اجتماع يمكن اعتباره مؤتمرا طارئا للكوادر المتواجدة في بيروت أثناء الحرب وكنت احد المشاركين في هذا الاجتماع. وأذكر إنني تحدثت عدة دقائق، اجتهدت فيها بأن المواضيع السياسية التي كنا نختلف عليها، وربما لا نزال، لم تعد مطروحة الآن بشكل رئيسي في هذه الحرب، وأننا إذا ما توصلنا إلى فهم مشترك لطبيعة هذه المعركة وآفاقها وكيفية معالجة وتعبئة أوسع القطاعات الشعبية فيها، فإننا لن نصادف مشاكل تذكر في عملنا الجماعي ضمن منابرنا ومؤسساتنا القائمة أو التي يمكن استحداثها. وعلى هذا الأساس فإنني، باسم إخوانكم العاملين في إذاعة صوت فلسطين، ادعوكم جميعا للمشاركة في العمل اعتبارا من هذه اللحظة.

في هذا الاجتماع تقرر دعوة كل من له القدرة على المساهمة في العمل الإذاعي الالتحاق بالإذاعة، كما تقرر استحداث جريدة يومية لدعم "فلسطين الثورة" تحمل اسم "المعركة"، وهكذا وجدت نفسي في اليوم التالي محاطاً بحشد كبير من الكوادر ذات المستوى الجيد، وأقلعت سفينة الإذاعة بطاقمها الجديد وكان ذلك بمثابة التطور الأساسي الذي نجحنا فيه معاً، وساهم إلى حد كبير في النجاحات المتواضعة التي اعتقد أن الإذاعة حققتها في الحرب.

والإذاعة ليست مجرد مادة مكتوبة يقرأها مذيع جيد من وراء الميكرفون، إنها نهر كبير تجتمع في مجراه روافد عديدة ليصل إلى الجماهير قويا غنيا متدفق العطاء، أو بتعبير آخر، هي لوحة متعددة الألوان والأبعاد، تتكامل فيها العناصر الجمالية دون نشاز يبعث على النفور، ودون رتابة تبعث على الإحباط والكآبة.

لذا كان لا بد من استنباط مساحات الإبداع أمام هذا الحشد الكبير من الكوادر الجديدة، وإيجاد سبل التفاعل النشط فيما بينهم وبين من سيقودهم في التجربة، كي ترتسم اللوحة كما يجب، ويمضي النهر في مجراه الصحيح، ونحو مصبه الطبيعي، فلم تنقصني أيام قليلة حتى انسجم الجميع في عمل متكامل وكل ضمن إمكاناته في العطاء والإبداع.

فريق المعلقين السياسيين التقط الخيط، ولم يعد بحاجة إلى اجتماعات يومية تتحدد فيها الخطوط السياسية التي ينبغي على الإذاعة أن تبلورها على الصعيد الأخباري أو التحليلي أو التحريضي. فريق الأدباء والفنانين، ينتشر في الليل والنهار لإجراء الحوارات المسجلة مع الجمهور والمقاتلين وإقامة حفلات السمر في المواقع المتقدمة وتسجيلها كي تذاع في الليلة التالية. ولقد أذعنا بالمناسبة عرسا في موقع المطار، وعدة حفلات أحياها الفنان المصري التقدمي عدلي فخري مع الشاعر المبدع زين العابدين فؤاد في المستشفيات، التي كانت تغص بالجرحى، وتسجيلات ذكية نادرة أجرتها المذيعتان نعم وسلوى ومعهن الكاتب غالب هلسا، وجزء كبير منها مع الأشبال المقاتلين.

فريق الأخبار، أُعطيَ صلاحيات استثنائية في استنباط مصادر جديدة للأخبار، خاصة بعد أن ازدادت الشكوى من تباعد المسافة بين تصريح عسكري وآخر، ولقد سمح لفريق الأخبار بالتنصت على أجهزة اللاسلكي واستخلاص التطورات من خلالها دون أن يحمل الخبر المستخلص من هذه المصادر أية صبغة رسمية، وإنما يمكن أن ينسب للمراسل الإذاعي ونظرا لعدم اتساع المساحة الجغرافية للمعركة، فقد كان من الأمور المتاحة، ولو بصورة بالغة، تدقيق الأخبار المستقاة من الإنصات على ما يجري فوق الأرض وغالبا ما كانت تأتي النتيجة متطابقة ودقيقة.

فريق المهندسين الذين عملوا بصمت وامتياز، والذين لولاهم لما كان عملنا ممكنا أساسا: فلاح، صبري، ماجد، سامي، وفخري، محمد عمر، أبو زهير، وعبد الله، الذين كانوا مع المذيعين الأكثر تعرضا للخطر، وبلا هوادة استمروا في أداء عملهم بإتقان حتى النهاية.

ولا بد لي أن أشير، هنا، إلى الأخ المهندس الإذاعي كاظم الذي اعتقله الكتائبيون وأذاقوه عذابا مراً هو والكاتب العراقي جليل حيدر، ثم سلموه إلى القوات الإسرائيلية، لتذيقه مر العذاب، وتلقي به في معتقل أنصار الرهيب مع آلاف الأسرى رغم الظروف الفظيعة، التي تحيط بهم.

ومع أن عملية التطوير في ظل الحصار والمعركة . حيث الموت المتنقل . كانت تستند في الأساس إلى تجربة طويلة تمت بأجزاء رئيسية منها قبل الحصار، إلا أن ظروف المعركة وتسارع أحداثها، وحجم الخطر الذي تنطوي عليه، ساهم إلى حد كبير في إنجاح التجربة، وأعطاها قدراً هاماً من التميز.

وقد اقدمنا على خطوة جريئة، إلى حد ما، حين تعرضنا للقصف طيلة إحدى عشر ساعة متصلة، وعقب توقف النار، صار بوسعنا أن نجتمع كلنا حول مائدة واحدة، أحضرت جهاز تسجيل في محاولة شخصية من جانبي لمعرفة كيف يتصرف أو يتحاور فريق الإذاعة بعد هذا اليوم الطويل المحفوف بالأخطار المحيطة، أخفيت الجهاز واقترحت موضوعا ساخرا للنقاش، وكان عنوانه كيف تصفون مناحيم بيغن بعد هذا اليوم المميز، كان أبرز المشاركين في الحوار الساخر رشاد أبو شاور وفيصل حوراني، وبعد ربع ساعة أعدت الشريط وبدأنا الاستماع، كان الحوار عفويا رشيقا إلى أبعد الحدود مما شجعني على الاقتراح بأن هذه "الربع ساعة" يمكن أن تذاع على الهواء، اعترض البعض وظن آخرون أنها مجرد طرفة، غير أنها أذيعت بالفعل وكان لها وقع جيد.

هذه التجربة، كما اعتبرها، جريئة لعدة أسباب، منها أن الجمهور الذي أرهقته ساعات القصف الجوي المتصل ليس بحاجة لأن يستمع إلى تحليل سياسي، فقط، ومن العيار الثقيل. وبالتالي فإن المادة المرحة التي قدمناها، وهي على أي حال، أشبه بالكاريكاتير السياسي، يمكن أن تبعث بعض الهدوء والسكينة، كما أنها تنمي نزعة التحدي، وعدم تهيب الخصم الذي أراد بقصفه الوحشي الطويل أن يدفع الجمهور إلى اليأس، بعد زرع الرعب في قلبه.

كنت قد وعدت في سياق حديثي عن تجربة الإذاعة في أحد أيام القصف الشديد، أن اسجل واقعة تنطوي على قدر من الطرافة والجرأة حدثت مع أحمد عبد الكريم "بن بللا فلسطين"، حين كان مراسلا عسكريا

للإذاعة، وقبل أن أسجل هذه الواقعة أود أن اقدم، بعض المعلومات عن صاحب الواقعة.

فهو شاب لم يتجاوز الخامسة والعشرين يتمتع بذكاء حاد، وحيوية متدفقة، رياضي مواظب. وصل إلى اعلى مراتب لاعبي ومدربي الكاراتيه، إلى جانب ذلك، فلديه إلمام كاف باللغة اليابانية والإنكليزية فضلاً عن أنه دخل الثورة شبلاً، وتدرج في العمل العسكري إلى أن وصل إلى رتبة نقيب. وهو مع ذلك، صاحب صوت إذاعي جميل، أي انه باختصار متعدد المواهب وأبرز ما يميز شخصيته بوجه عام روحه الطفولية التي تنعكس على كل تصرفاته واحاديثه دون أن تمس جوهر التزامه بالثورة، واستعداده الدائم للنضال حتى الموت في كل معاركها.

وقد كُلِّف أحمد بتغطية أحداث الحرب، منذ اليوم الأول، وكمراسل عسكري فإن له حق التواجد في كل المواقع العسكرية، ولأننا لسنا جيشا كلاسيكيا، ولا دولة فإن في عملنا اليومي وقائع تبدو غريبة منها، مثلاً، أن بوسع المراسل العسكري للإذاعة أن يدخل على شبكة الاتصال ويجري حوارات مع قادة الوحدات وعمال أجهزة اللاسلكي، وأن يسجل مقتطفات تبين المجرى العام للقتال.

وقد دأب أحمد على استغلال هذه الميزة إلى حد ازعج بعض المسؤولين العسكريين الذين لفتوا انتباهنا بوقف هذا النوع من النشاط، وامتثل أحمد حتى نهاية الحرب. وحدث في الأيام الأولى للقتال، أن وجد نفسه محاصرا تماما بين عدد من المواقع الإسرائيلية في الجبل المحاذي للساحل، واصبح متعذراً عليه اختراق الحصار، خاصة وأنه يصر على عدم مغادرة سيارته التي حرص على تجهيزها بالمعدات الإذاعية والقتالية الكافية إضافة إلى جهاز اللاسلكي الذي كان يصله بنا في بيروت.

كانت إشارات احمد تصلنا على نحو شبه منتظم، وكان موفقا إلى حد بعيد في رسم صورة للموقف العسكري خارج منطقة بيروت فقد أفادنا في ذلك إفادة كبيرة، غير أن هذا الوضع لم يدم أكثر من أيام قليلة، ليجد

مراسلنا العسكري نفسه مرة أخرى في دائرة حصار محكم تجعل من إمكانية وصوله إلى بيروت شبه مستحيلة ولكن نظرا لمعرفته الكافية بمنطقة الجبل، كان بوسعه أن يصل إلى دمشق في ساعات قليلة، غير أنه وكما أفاد فيما بعد، آثر أن يقدم على مجازفة، وهي أداء عمله من قلب الحصار، كنا نتابع إشارته بقلق وتشوق، وحين كان ينقطع عنا يوما كاملا، كنا نتخيل مئات الأشكال لكيفية انتهاء تجربته، إما شهيدا أو أسيراً أو متسللاً عبر الطرق الفرعية إلى أي مكان.

في أحد الأيام، فاجأني صوت أحمد يذيع فقرة لا أذكر بالضبط حول ماذا، تحركت على الفور إلى الموقع ٩٥ حيث كان الاستوديو الرئيسي، ورأيت جميع كادر الإذاعة متحلقا حول احمد، ويستمع إلى حكايته التي كان يرويها بأسلوب شيق:

كنتُ في احد البيوت في سوق الغرب، وقد قمت في الليلة السابقة، بإخفاء كافة المظاهر التي يمكن أن تثير شبهات القوات الاسرائيلية والكتائبية. دفنت البندقية والقنابل والجعب تحت شجرة بعيدة. دققت في اوراقي والأشرطة التي كانت بحوزتي. وكان يقلقني أن معظم الجيران حول المنزل، يعرفونني جيداً، وشاهدوني أكثر من مرة بملابسي العسكرية، وأدواتي الإذاعية. غير ان قلقي بدأ يتبدد حين زاروني وأبدوا قدرا كبيرا ومتحمسا من التعاطف والاستعداد لمساعدتي في الاختفاء، حتى أجد وسيلة مناسبة للمغادرة. وقد ازدادوا اطمئنانا حين أبلغتهم أنني اتخذت ترتيبات محكمة تبعد الشبهة عني، واتفقت معهم على أنني مجرد مدرّب للكاراتيه في احد أنديه بيروت لا علاقة لي بأية نشاطات أخرى.

في حوالي العاشرة صباحا، وكنت استلقي على السرير، واقلب مؤشر الراديو على جميع الإذاعات، سمعت طرقا قويا على الباب، تخيلت لحظتها أن الإسرائيليين جاءوا لي شخصيا. استجمعت قواي، وفتحت الباب، لأجد احد عناصر

الكتائب يقف بتوتر، فسألني من أنت؟ وقبل أن أجيب قال احد السكان بلهجة لبنانية جبلية وكان واقفا على الشرفة في الطابق الثاني: "هيدا يا خي الأستاذ احمد"، تشجعت ودعوت العنصر الكتائبي إلى الدخول، لكنه اعتذر وطلب كوبا من الماء، أحضرته له، وانصرف مرتبكا، لكنه عاد بعد دقائق ليقول لي: الأفضل لك أن لا تفتح الباب مرة أخرى، وأن لا تعطي أحدا طعاما أو ماء، كي لا يطمعوا فيك، وسأعود ربما وأشاركك هذا المنزل.

شكرت له نصيحته، التي لا استطيع الالتزام بها، ولكني منذ تلك اللحظة ادركت أن استمراري في المكان مجازفة لا لزوم لها، وبينما كنت افكر في الخروج من المأزق وكان ذلك بعد الظهر، سمعت طرقا قويا على الباب، كان قد سبقه نداء بمكبر الصوت يدعو بشكل عام "المخربين" إلى الاستسلام، ولما كنت اعرف أنه لم يكن في المنطقة أي فدائي، حيث لم يكن فيها تواجد عسكري، وكل تواجد هنا يقتصر على مدرسة إسعاد الطفولة، كان انفعالي في تلك اللحظات، أقل حدة من المرة السابقة، وفتحت لأجد هذه المرة ضابطا إسرائيليا برتبة نقيب مدجج بالسلاح ويحمل في يده جهاز لاسلكي.

سألني النقيب: من أنت وماذا تفعل هنا؟ تحدث بالإنكليزية واجبته، بأنني أعيش في هذا المنزل، واعمل مدرباً للكاراتيه في احد نوادي بيروت.

هل لديك سلاح أو هل عندك مسلحين؟

أجبته بالنفي، ثم رغبت في التصرف معه، فاستدركت قائلا عندي سلاحي الشخصي. استنفر الضابط، وعاد خطوات قليلة إلى الوراء، وشهر مسدسه وتقدم من جديد صارخاً: أين السلاح؟

ذهبت إلى الغرفة الداخلية، وأحضرت قطعة من الخشب على هيئة عصاة قصيرة تستخدم في تمرينات الكاراتيه، وقدمتها له، هذا هو سلاحي الشخصي، ضحك الضابط، وبدا أنه اطمئن للوضع، جلس على احد المقاعد ووجدت الظرف ملائما لمحاورته.

سألته عن اسمه، أجاب فلان، المهندس فلان لكنه سألني: هل أنت لبناني؟ وقلت: إنني يمني الأب، ويابابي الأم. دهش للإجابة وهز رأسه متفهما لدوافع أني أستاذ كاراتيه وعلق قائلا، كم أحببت أن أتعلم هذه الرياضة العنيفة، لاطفته أني على استعداد لمساعدتك، فالكاراتيه رياضة أخلاقية وإنسانية قبل أن تكون عنيفة.

طلب مني أن اشرح له ما أقول، فأوجزت له إن الكاراتيه تختلف عن الرياضات الأخرى، بأنها رياضة دفاعية فلا يجوز أن يقدم على عمل عدواني أو هجومي ونظرا لتجاوبه معي أردفت قائلا على عكس العمل العسكري الذي تقومون به فعملكم هذا هجومي، اعترض على كلمة هجومي، فسألته: إذن لماذا أنت هنا، الست مهندسا كما تقول؟

نعم أنا مهندس، لكن ما نفعله هو دفاع وقائي ضد المخربين وعلى صعيد شخصي، فأنا ضابط احتياط، ولكنني لم أشارك بشكل فعلي في القتال.

سألته: إذن ماذا تفعل هنا؟ أجاب: حتى الذين يعملون تحت امرتي لم يشاركوا بشكل فعلي في القتال. أبديت دهشة لما يقول، وسألته تفسيرا لوجهة نظره، فقال، الذي يحارب عندنا هو سلاح الطيران، فبعد أن يتم الطيران تنظيفه للمواقع المعادية تصدر الأوامر لنا بالتقدم، وحين نواجه مقاومة جدية، نتراجع إلى خطوطنا ليقوم الطيران بالتنظيف من جديد، ساعتئذ نتقدم للاحتلال والتفتيش. سألته: هل تعتقد أن الحرب يمكن أن تقف عند الحدود الراهنة، أجاب، لا اعرف، بالضبط، ولكني آمل ذلك،

على كل يمكن أن تتوقف الحرب لو استسلم عرفات، سألته، وهل تعتقد أن عرفات على وشك الاستسلام.

أجاب: لا اعتقد

سألته: إذن ماذا ستفعلون؟

أجاب: سنقتحم بيروت، سنخسر كثيرا، ولكن ليس أمامنا خيار آخر.

وددت لو أنه كان باستطاعتي تسجيل هذا الحوار، حتى أنه خطر ببالي أن أجازف باقتراح إجراء تسجيل معه تحت عنوان "ذكريات مع ضابط إسرائيلي"، غير إنني أقلعت عن هذه الفكرة التي يمكن أن يكون أقل ثمن لها هو الأسر. عرضت عليه أن اقدم له بعض الشاي أو القهوة، لكنه اعتذر ووعد بالعودة ثانية.

سألت نفسي: إلى أي مدى يمكن أن اذهب في هذه اللعبة المجازفة، فهم حتى الساعة مرتبكون جدا ولا أظن انهم سيستمرون هكذا خصوصا بعد أن يتدفق الكتائبيون على المنطقة، وهم اكثر خبرة في معرفة الناس من الإسرائيليين، حتى بطاقة التعريف بي لا تتجاوز بطاقة عضوية في النادي الذي انتسب اليه، وهو واقع في المنطقة الغربية من بيروت، وهذا وحده كاف لإثارة الشبهات، وقررت على الفور مغادرة المكان: والتهيؤ بهدوء للإقدام على مجازفة العودة إلى بيروت، وها أنذا قد عدت.

كيف تم ذلك؟

بشيء من المجازفة وشيء من الصدفة، وشيء من حسن الحظ. سأله بعضنا: كيف حال مدرسة إسعاد الطفولة؟ احتقن وجه أحمد الطفولي، وأجاب بنبرة يشوبها الحزن والألم، لقد شاهدتهم ينهبون الأثاث، ويمزقون الصور واللوحات المثبتة

على الجدران، ليس هذا وحده ما أحزنني، ولكني علمت أن عملية إعدام نفذت بالقرب من المدرسة فلقد اعتقل الكتائبيون أحد الرجال المسنين، بتهمة أنه ينتمي إلى الحزب الشيوعي اللبناني، واطلقوا النار عليه أمام الناس.

***

كنا ندرك أننا مغادرون بيروت لا محالة، وأقل ما كان يؤلمنا هو الحصار الإسرائيلي المحكم، المصحوب بشتاء من القذائف والنار. فلقد كان هذا الحصار بمثابة نموذج مبسط لحصار فولاذي أوسع، هو الحصار العربي. وحين كنا نتحدث عن آفاق معركة بيروت، كنا نتناسى الحجم الإسرائيلي، فيستأثر الحجم الأوسع بكل حديثنا وخواطرنا واستنتاجاتنا.

فهذه دعوة من وراء البحار للانتحار حفاظاً على شرف الأمة، وهذه دعوة أخرى بالمرونة والتعقل لعدم إعطاء الجيش الإسرائيلي مبررات لتدمير بيروت، وكل ساعة بل كل لحظة، نسمع محطات الإذاعة العربية . وما أكثرها . تتغنى ببطولاتنا، وتندد بسخط شديد بالتخاذل العربي. وحقا إن شر البلية ما يضحك، فحين نستمع إلى عشرات الإذاعات العربية، تندد بالصمت العربي والتخاذل العربي والتمزق العربي، كنا نتساءل، ترى من يهاجم هؤلاء؟ من المسؤول عن الوضع العربي، وكان العم عمر الذي يقدم الشاي لنا يجيب دائما "الحق على الطليان".

إن الجميع يصفق لهذا العرض الدامي، جحيم من النار يلف بيروت، وتحت النار والدخان حفنة من الرجال يقاتلون، ويجدون وقتا للابتسام ويخترعون نوافذ للأمل، والشعراء يؤلفون قصائد جديدة، والفنانون يرسمون لوحاتهم في الأقبية الرطبة، وأحد أعضاء القوات المشتركة يعقد قرانه على حبيبته في خط النار، وكل العواصم غارقة في أضوائها ولياليها الصاخبة، ترسل صرخات الإعجاب عبر الأثير،

كما لو أنها صرخات منتشية تنطلق من حناجر مشاهدي مباراة مثيرة في كرة القدم، ونحن في بيروت نعيش حياتنا الجديدة بين الحقائق الصارخة التي نواجهها في كل لحظة، وبين الأحلام التي لم نتخل عن التعلق بها ولم لا؟ نتخيل ونحلم، فذلك أمر يتعلق بثقافتنا وتربيتنا.

كانوا يستعيرون لنا من التاريخ أجمل ما فيه، ويزرعونه في عقولنا الصغيرة، لتتراكم طبقات من الأمجاد الماضية بالاعتزاز والحماسة، إلى حد لا يبقي مكانا في عقولنا نتساءل فيه عن حالتنا، نحلم ونتخيل، فالثورة كما أفهمها لا تحرم الحلم والخيال، ولا تقطع الإنسان عن جذوره، ولا تقتلعه من تراثه.

إن الثورة محاولة جدية لقطع المسافة الواسعة بين الحلم وجعله حقيقة، كما هي شريان يربط تراث الشعب منذ بدء الزمن إلى ما لا نهاية، وحين تنبت في أرضنا العربية ثورة حاولت أن تضع الناس أمام إجابة صحيحة عن سؤالهم العام الكبير، ما العمل؟ حدث ما حدث:

إلى البحر.

اتيحت لي فرص كثيرة لمعرفة العديد من الأخبار قبل الإعلان عنها، وأهم خبر عرفته في الأيام التي سبقت خروجنا من بيروت، أن أبو عمار سيغادر إلى أثينا، وأن السفير اليوناني في بيروت هو الذي يجري الترتيبات اللازمة لذلك، عبر اجتماعات متصلة مع أبو عمار والعميد أبو الوليد. وقد كان المقر المركزي للإذاعة، مكان هذه الاجتماعات، التي ظلت طي الكتمان. كما شهد نفس المكان اجتماعات على نطاق آخر تتعلق بعملية الرحيل عن بيروت،

وكلمة الرحيل، كانت قاسية وموجعة للنفس والوجدان، فكل الذين يتأهبون للرحيل يمتلكون ملايين التفاصيل التي تشدهم إلى بيروت، وتجعلها مدينتهم الحبيبة، بل أن كثيرين منا، تعرفوا على بيروت

وأحبوها بعمق في الشهور الثلاثة الأخيرة، أي شهور الحرب والحصار. ومع ذلك فلا بد من مواجهة الحقيقة بكل شجاعة، ولا بد من توطين النفس وترويضها على القبول بما بعد بيروت، وما بعدها قاس وصعب، ولكنه عظيم إذا ما صار بداية جديدة، أو استمراراً للثورة من مواقع جديدة.

كانت امتع الساعات في حياتي العملية، هي تلك التي أقضيها مع زملائي في الإذاعة نفكر معا، ونخطط معا، ونعمل معا كفريق واحد، يؤدي عرضا يوميا يحاكمه الجمهور لحظة بلحظة. وكنت احس بمتعة لا حدود لها، وانا أشارك في اجتماع لكادر الإذاعة نناقش فيه شؤوننا وشجوننا بكل انفتاح وحرية، غير أن اقسى اجتماع عقدته كان ذلك الاجتماع القاتم الذي تم في مساء يوم ما من أيام بيروت لتنظيم عملية رحيل كادر الإذاعة إلى عدد من الدول العربية.

لم يدقق احد منا في البلد الذي سيتوجه اليه، فكل العواصم بعد بيروت، ذات لون واحد وبعد واحد. ومعظم الذين شاركوا في هذا الاجتماع قالوا بمرارة ولا مبالاة: نحن جاهزون للسفر إلى أي مكان. وبعضهم تساءل عن إمكانية البقاء، ولقد وجدت نفسي وزميلي طاهر في موقع القرار فاقترح طاهر أن يتوجه معظم كادر الإذاعة إلى الدول التي نملك فيها إذاعات وبرامج، مثل الجزائر واليمن الجنوبي والشمالي، أما الباقي فيتجمعون في دمشق ليكونوا جاهزين لبدء العمل في أي مكان جديد. وفي هذا الاجتماع الكئيب اقترح احد الإخوة أن نناقش موضوع وقف الإذاعة من بيروت، فرفض هذا الاقتراح، بدافع المكابرة ليس إلا.

على شرفة بيت هند جوهرية، الذي قدمته لنا في الأيام الأولى من الحرب كمقر مركزي للإذاعة، كنا نجلس بشكل يومي، ونتحدث في أي شيء إلا ما له صلة بالعمل، وكأننا اتفقنا جميعا على أن هذا المكان مخصص لاسترجاع الذكريات، وتبادل الحكايات والطرائف، وكم كنا نحب تلك

الشرفة رغم ضيق مساحتها كانت دائما تغص بالجالسين حتى في ساعات يكون فيها استئناف القصف محتملا.

عقب اجتماعنا القاتم، وجدت نفسي وحيداً على تلك الشرفة الحميمة، وبدأ شريط من الصور يمر في خاطري، سلمان الهرفي، وهند جوهرية، يقتحمون علينا موقع أل ٩٥ طالبين قبولهم كمتطوعين للعمل في الإذاعة، فكلفناهم بمهمة لا تحتاج إلى مهارات إذاعية متخصصة، وهي تحضير اللقاءات الميدانية مع المقاتلين معتمدين بشكل رئيسي على المذيعة نِعَمْ،

ولقد قطعنا شوطا لا بأس به في هذا المجال، وفي منتصف الطريق تمزقت أطراف سلمان بفعل انفجار سيارة ملغومة في قلب بيروت، ونجا من الموت بأعجوبة خارقة، وها هو الآن يتأهب للرحيل محمولا على محفة في جوف باخرة ستلقيه على شواطئ الإغريق ليبدأ من هناك.

أم بشارة التي لم اتحدث عنها مطولا على صفحات هذا الكتاب، تقف على شرفتها منذ الصباح الباكر تركز بصرها علينا تبتسم بحنو دافئ تلوّح بقبضتها ليعم الفرح بيننا، هذه السيدة الكبيرة، قالت لي عصر ذلك اليوم: سترحلون وسأظل وحدي.

صور تمر فيهتاج الوجدان وتشتعل المشاعر إلى أن يستقر الحزن بهدوء في النفس المثقلة قهرا ومرارة وخيبة أمل. وقد انتزعت نفسي من تلك الحالة الوجدانية المهتاجة، حين امسكت بالقلم لأكتب تعليقا بعنوان: "وداعاً، ايتها المدينة العظيمة".

وجاء يوم الرحيل، كنت واحدا من عدة كوادر تقرر أن تغادر على نفس الباخرة، التي أقلت قائد الثورة ياسر عرفات. كانت نقطة التجمع هي مكتب القائد العام في حي الفاكهاني، وحين وصلت إلى هناك، كان القائد العام قد وصل لتوه، وصعد إلى الدور الخامس حيث مكتبه في الظروف العادية، هرع الجيران للسلام على أبو عمار، كانت الدموع تملأ عيونهم،

وبعضهم لم يستطع النطق في تلك اللحظات النادرة، لحظات التأثر العميق في وداع جار غير عادي أحب الناس وأحبوه وتعودوا عليه، وخاضوا معه أكبر تجربة في تاريخهم، وها هو يتسرب منهم مغادرا إلى أي مكان.

لم أتمكن من الصعود إلى الدور الخامس واكتفيت بمراقبة الشرفة التي أطل منها عرفات وجيرانه علينا، تأملت مكتب القائد العام الواقع في قبو البناية، لم يقصف هذا المكان رغم أنه معروف جيدا للإسرائيليين، فلقد آثر شارون أن يحافظ عليه كما هو ليلتقط فيه صورا استعراضية يبيعها أمجادا فارغة للإسرائيليين أو يطبعها على بطاقات المعايدة وطوابع البريد. ولم يتحقق لشارون حلمه هذا رغم انه وقف بدبابته على بعد ميلين لا اكثر.

قلت بيني وبين نفسي، لو أن جدران هذا المكتب تستطيع الكلام لو أنها تقول للناس حكايات وأسرار هذه الغرف الصغيرة التي كان عرفات يسهر فيها من بداية الليل حتى ساعة الشروق، يلتقي بمبعوثين من مختلف أنحاء العالم، يعقد اجتماعات للجنة المركزية والقيادة المشتركة، يتخذ قرارات كبيرة، وعلى سطح المكتب سرادق دائم لتقبل العزاء بالشهداء.

هبط عرفات إلى الشارع الضيق، انهمر مطر الأرز والورود، وامتلأ الشارع بالمودعين، ولم أر في حياتي مئات الأشخاص يبكون في لحظة واحدة إلا في ذلك المشهد المؤثر. التفت إلى جانبي ورأيت "عم عمر"، ذلك الكهل الطيب الأمين الذي كان يقوم على خدمتنا ويعاملنا بحنو ومحبة، كما لو انه أب للجميع. كان يجهش بالبكاء مددت يدي وقلت وداعاً يا عم عمر، عانقته بانفعال وكأنني أودعه للمرة الأخيرة، كل حجر وورقة وذرة هواء في إذاعتنا ببيروت كان العم عمر واحد من مؤسسيها وبُناتها منذ الأيام الأولى وحتى يوم الرحيل.

كان أبو محمد السائق الشجاع، والذي أسميناه أبو نبيل، يقود بي سيارة التويوتا الصغيرة. كان شاحب الوجه، ولم يستطع الكلام

فلربما كان الموقف بالنسبة له أكبر من قدرته على التعبير. انطلقنا خلف موكب عرفات لنصل أخيرا إلى منزل كمال جنبلاط، ومقر الحزب التقدمي الاشتراكي. كان عرفات يعشق هذا الاسم، كمال جنبلاط، كان يحبه بعمق، ويحترم ذكراه وكان يقول عنه دائما إنه جيوش تحارب معنا.

مضت قرابة ساعة التقى خلالها أبو عمار بوليد جنبلاط ومحسن إبراهيم وجورج حاوي وكثيرين من قادة الحركة الوطنية. اندلع صوت الرصاص وانهمر مطر الأرز والورد، وعرفنا أن القائد أنهى زيارته الوداعية لذكرى أقرب الأقربين إلى قلبه. وانطلق الموكب المهيب باتجاه دار رئاسة الوزراء في محلة الصنائع، ومن هناك إلى ميناء بيروت.

كان الوقت يمضي متسارعا، وكلما اقتربنا من لحظة الفراق، كنت أتخيل بيروت بكل أهلها وجبروتها أشبه بقلب كبير ينبض بصوت عميق فيهزني من الأعماق. لم التفت لفخامة طابور حرس الشرف الذي اصطف لوداع عرفات، لم أدقق في وجوه المودعين فكل لبنان كان هناك حتى الأعداء، كانوا يراقبون المشهد الكبير من فوق أسطح العمارات المرتفعة، وكان ياسر عرفات وهو يستعرض بصعوبة حرس الشرف، يصر على أن ينظر إلى أعلى، رافعا شارة النصر التي اشتهر بها، وراسما ابتسامة عريضة على وجهه بينما داخله يشتعل بمشاعر عاصفة.

وقف رجال الكفاح المسلح بانتظام ليؤدوا تحية القائد العام على أنغام النشيد الوطني، وتحت ظلال العلم الفلسطيني، ولكم رأيت رجال الكفاح المسلح في مشاهد احتفالية، غير أن الشيء الذي رأيته لأول مرة، تلك الدموع التي كانت تنساب بصمت من مآقي الجنود الأشداء، الذين كانوا بالأمس على خطوط التماس.

تجمعنا في الباخرة، لم أتابع المشهد الاحتفالي الأخير، والذي شارك فيه القادة والزعماء، تناهت إلى سمعي أصوت كلمات متبادلة، وسمعت عن

وسام صمود بيروت الذي تم تسليمه لرئيس الوزراء اللبناني، تفرق الجمع وخرجنا كلنا إلى شرفة السفينة اليونانية "أتلانتيك". لمحت وجه سلوى العمد، "بنت الشعب"، وقد طغى عليه احمرار شديد، لوحت بيدي لهذه الزميلة المناضلة، وتذكرت أنها اخترقت الحصار وجاءت لتموت أو تعيش مع الثورة، وها هي تودعنا إلى البحر.

اطلقت الباخرة صفارتها القوية، لم يبق أمام أعيننا سوى محسن إبراهيم، ووليد جنبلاط، همست في إذن القائد العام قائلا، إنها المرة الأولى التي أشاهد فيها محسن إبراهيم يجهش بالبكاء، رد القائد بنبرة متهدجة، كان الله في عونه على أكتافه ثقل كبير، كبير. دخلنا إلى قلب السفينة، اخترت لنفسي مقعداً بجانب احد البحارة اليونانيين، وكان عرفات وعدد من مرافقيه يجلسون في ركن بعيد، لم تمض دقائق حتى انتظم مسار السفينة، وقفت والزميل صالح قلاب في المقدمة نشاهد قطع المواكبة وهي مدمرة أمريكية، وأخرى فرنسية. ثم انضمت مدمرة يونانية.

سألني صالح: ماذا ستفعلون بالإذاعة؟ تذكرت واقعة حدثت قبل أيام قليلة، حين زارنا الأخ أبو جهاد نائب القائد العام في المقر المركزي، وتناقشنا معه في مستقبل الإذاعة، واقترح أن نقيم إذاعة في عرض البحر، إذا ما رفض الأشقاء العرب إعطاءنا مكانا لإذاعة. وكانت السفينة تشق سطح البحر، والسماء الزرقاء تغلف وحدتنا، وبيروت تبتعد عنا.

أحسسنا جميعا برغبة في التحلق حول عرفات، وكأنه لم يكن أمامنا سوى واحد من خيارين، إما أن نستسلم لعاطفتنا الملتهبة فننفجر بالبكاء، وإما أن نتعامل مع الحقيقة بقدر عال من الموضوعية والواقعية والصرامة. وكان أن اختار عرفات بالنيابة عنا، استدعى حسن احد المرافقين والمسؤول عن جهاز اللاسلكي، وأملى عليه برقية عاجلة للجميع: وافونا بالموقف. وفي اليوم التالي، كان مشروع ريغان هو أول عمل جدي يناقشه القائد معنا على ظهر السفينة اليونانية.

شهادة من أرض الوطن

تمثل إذاعة فلسطين بالنسبة للشعب الفلسطيني في كل مكان، وخاصة داخل الأرض المحتلة، رمزاً للهوية الوطنية الكفاحية لهذا الشعب. ونورد هنا مقالا كتبته صحيفة "الاتحاد" الحيفاوية في العاشر من أيلول بعنوان "صوت فلسطين" يتحدث المقال عن الإذاعة ودورها خلال الحرب، ومكانتها في وجدان الشعب، وموقعها في مسيرة كفاحه.

ها قد مر علينا حوالي أسبوعين لم نستمع خلالهما إلى الصوت الوحيد من بين جميع الإذاعات في المنطقة الذي أحببناه ووثقنا به واعتمدنا عليه في معرفة حقيقة ما يدور في لبنان خلال الحرب – ألا وهو "صوت فلسطين، صوت الثورة الفلسطينية".

لقد احترمنا هذا الصوت قبل الحرب أيضا. لأنه على الرغم من إمكانياته المادية الفقيرة وساعات بثه المحدودة، نجح في أن يكون إذاعة وطنية حرة لشعب مكافح تتقدم وتتطور باستمرار، ولكل دوره ومسؤوليته خلال الحرب، وقد تضاعفا بما لا يقاس حتى بات الصوت الذي لا غنى عنه، الصوت الصادق والمسؤول والموضوعي والواقعي.

اذكر أنه في أول يومين من الحرب انقطع عنا ولم تنفع كل الجهود لاسترداده، وفي اليوم الثالث للحرب (٦ حزيران ١٩٨٢) كنا في "حيص بيص" بالنسبة لحجم الحرب ومداها واتساع نطاقها. كان "صوت إسرائيل" يتكلم عن عملية "سلامة الجليل"، ويدعو الفدائيين الفلسطينيين واللبنانيين وأهالي صور وصيدا والدامور للاستسلام. وكانت الأصوات "الموضوعية جدا جدا"، من لندن تمزق الأعصاب في تقاريرها المتوازنة بين إسرائيل وإذاعة الكتائب في لبنان. وكانت "مونت كارلو" تخبرك: أعلن وزير الدفاع الإسرائيلي، وقال: سنقضي على المخربين، حسب تعبيره، عدد القتلى حتى الآن ألفان و.. مالبورو سيجارة الرجال.

وما كان ممكنا إلا أن نعتمد على "صوت إسرائيل" محاولين قدر الإمكان عدم الوقوع في مطبات حربه النفسية. وقد أنعم علينا "صوت إسرائيل" هذه المرة بحملة إعلامية كاذبة من أولها إلى آخرها حتى صار ضروريا إسقاطه من الحساب.

وبعد فترة من مرمطة الأعصاب وشراء جهاز إذاعي متطور، وباهظ الثمن، تمكنا من التقاط صوت فلسطين، بأهازيجه الوطنية "ما بنسلم ما منتحول يا وطني المحتل"، وأخباره الدقيقة وتحليلاته الصحيحة ومواقفه المسؤولة.

استمعنا إليه وواصلنا الاستماع، وإذا بالمقاتلين الفلسطينيين الذين يدعوهم الجيش الإسرائيلي المغوار إلى الاستسلام يردون الصاع صاعين ويكبدونه خسائر لم يتوقعها احد. واذا بالمقاتلين الذين جاء جيش إسرائيل لسحقهم وتصفية قيادتهم وقضية شعبهم يواجهونه ببسالة لم يشهدها في كل حروبه (باعتراف قادته وضباطه)، وإذا بالمقاتلين الذين حرضهم صوت إسرائيل على أصدقائهم وحلفائهم ـ استسلموا لن ينفعكم السوفييت ولا السوريون ولا قادتكم المغامرون على حساب أرواحكم ـ واذا بهم يسقطون أربع طائرات إسرائيلية (اعترفت إسرائيل بثلاث منها) ويأسرون الجنود الإسرائيليين، ويعرقلون تقدم الجيش المعتدي ويصدونه على مختلف الجبهات ويمنعونه، بالتالي، بصمودهم الأسطوري، من احتلال بيروت الغربية.

ويحكي صوت فلسطين عن حرب الأنصار الفتاكة التي أخفتها السلطات الإسرائيلية فترة طويلة، واضطرت إلى الحديث عنها فقط بعد أن صارت سيرتها على كل لسان.

ويحيي صوت فلسطين رجاله بالاهزوجة الشعبية الوطنية

"يا حلالي يا مالي

حياكم الله، مرحبا، حيي الرجال الثائرين

ياللي سمعتم للنداء من صوتنا الحر الأمين

من شعبنا رمز الإباء ومن ثورته ع الغاصبين

تنحرك يا بلادنا ونعود بالنصر المبين".

ويبث صوت فلسطين الاهازيج الجديدة المنطلقة من قلب الخنادق والملاجئ والمستشفيات والمدارس والعمارات المهددة كلها بالقصف والتدمير الوحشي. ويبث الزغاريد فتتغلب على أصوات القصف وتودع وتستقبل الشهيد تلو الشهيد. ويبث اغاني الثورة العربية الجديدة ـ مارسيل والقعبور ونعم ـ ويحكي عن الجرائم وعن البطولات، ولا ينسى في عز القتل والدمار أن يقول: شعب فلسطين يريد السلام العادل. يقول ويعيد، ولا يخطئ في تحديد الصديق والعدو، ولا يعرف الخنوع والمواقف المائعة. يتكلم عن الحب والإنسانية. عن الارض والذاكرة. عن الحرب والسلم. عن الثورة والمستقبل. عن اخوة الشعوب والديمقراطية. لا نسمع فيه أي صوت للفاشية الشوفينية، أو العنصرية، أو الحربجية، أو التوسع والعدوان، تلك التي نجدها "حبطرش" في صوت اسرائيل بكل لغاته.

في ١٩٨٢/٨/٢٨ سكتت اذاعة صوت فلسطين لم تسكت فجأة. فقبل يوم أعلن المذيع بصوت الرجال ساعة فراق غال وعزيز، أعلن عن توقف البث من بيروت حيث سيخرج كادر العاملين في الإذاعة مع سائر الثوار الذين سيخرجون كي لا يجلبوا المزيد من الدمار على أهل بيروت الغربية.

وفي إسرائيل، حيث يبحثون بسراج وفتيل عن أخبار تبين انهم انتصروا في لبنان وتتستر على هزائمهم المتلاحقة عسكريا وسياسيا، ابرزوا الخبر بشكل غير عادي. عشر سنوات تجاهلوا صوت فلسطين واليوم اعترفوا به، وبأهميته، فنشروا الخبر على عرض ستة أعمدة وفي رأس صفحات الأخبار في الصحف (يديعوت احرونوت ٨/٢٩) وابرزوه في

الإذاعة والتلفزيون ليظهروا انه انتصار. ولم يتورع هؤلاء عن استخدام كلمات: لم يعد هناك صوت اسمه صوت فلسطين.

أية أوهام تلك، أية أوهام! هل يمكن أن يتلاشى صوت فلسطين؟ في يوم من الأيام تساءلت رئيسة حكومة إسرائيل الراحلة غولدا مائير: "أين هو الشعب الفلسطيني؟". وإذا بهذا الشعب يقف كالمارد يواجه جيشها الجبار ويقض مضاجع ورثتها في كل مكان تواجده.

لقد سكتت الإذاعة في بيروت. لكنها لم تسكت إلى الأبد. سكتت لكي تبث بعد النصر المبين من القدس العربية المحتلة، عاصمة الدولة الفلسطينية المستقلة.

وحتى ذلك الحين سيبقى صوت فلسطين يصدح، أقوى من أي وقت مضى، وفي كل مكان يتواجد فيه الفلسطينيون: في الناصرة وحلحول وغزة والجليل، في حيفا وتل أبيب ونابلس وعكا ويافا. في قبرص وتونس ودمشق وباريس. دائما سيصدح هذا الصوت، وسنسمعه إثر كل كذبة جديدة يبثها "صوت إسرائيل"، وكل تصريح عدواني جديد يتباهى به ويكرره، وكل فعلة احتلالية عنصرية. ولن نسمح بأن يخبو هذا الصوت مهما يكلفنا هذا من ثمن".

شهادة أولى

أغاني العاشقين، الحكاية كلها

بقلم: أحمد دحبور

-١-

بدأت الحكاية في ربيع العام ١٩٧٧، عندما قررت دائرة الثقافة والإعلام – فهكذا كان اسمها. ان تنتج في اطار منظمة التحرير الفلسطينية، مسرحية للشاعر سميح القاسم بعنوان" المؤسسة الوطنية للجنون". كان مدير عام الدائرة آنذاك هو المرحوم عبد الله الحوراني– ابو منيف– وكان المكلف بإخراج المسرحية المخرج السوري الكبير الراحل فواز الساجر.

ولقد لفت نظر فواز، ان المسرحية تشتمل على اغان مكتوبة بالعبرية أصلا، وهي لغة يجيدها سميح القاسم، وقد وضعها في تلك الصيغة لأنها تحاكي مأساة اليهود العراقيين الذين غُرر بهم وسيقوا إلى اسرائيل بوصفها الجنة الوطنية الموعودة، ومن هنا كانت مفارقة العنوان، فهذا المشروع الاستعماري ليس إلا " المؤسسة الوطنية للجنون".

وكان طبيعيا ومنطقيا، ان يتجاوز المخرج العربي السوري لغة الاعداء التي لا يعرفها أصلا، فاستعان بي لإيجاد كلمات عربية ذات ايقاع لتحل محل اللغة العبرية، وكان ما فعلته، هو ابتكار نصوص ذات حيثية محددة تتعلق بالتفاصيل الدرامية كما كتبها سميح، إلا أغنية واحدة

رأيت أن تكون مدخلا إلى العمل، وهي ذات مناخ وطني عام، غير مقيد بتفاصيل المسرحية، تلك الاغنية كانت مأخوذة من ترديدة موقعة كانت امهاتنا في الجليل يرددنها على التوالي.

" والله لأزرعك بالدار يا عود اللوز الاخضر"

وكان الايقاع - لمن يعرف الأصل - سريعا يكاد يحاكي الرقص، حتى اذا وضعت هذه المحاولة بين يدي حسين نازك، الموسيقي الكبير المعروف، احدث تغييرا على الإيقاع، فأبطأ به، ومنحه مسحة من الشجن، وحين تم عرض المسرحية علق لحن " اللوز الأخضر" في أذهان الجمهور كما وضعه حسين نازك حتى اصبح اغنية مستقلة.

لم اكن اتوقع ان يلاقي " اللوز الأخضر" ذلك الانتشار الشعبي الذي غلب على اسم المسرحية، ولا سيما ان الكلمات التي كتبتُها كانت مبنية على اساس اغنية متكاملة، هي هذه التي يعرفها جمهور فلسطيني وعربي على نطاق واسع، حتى ظهرت تساؤلات عما اذا كان ثمة مشروع غنائي وراء ذلك.

اذكر يومها ان المرحوم ابا منيف، استدعانا انا وحسين، وطلب منا ان نتوسع في مشروع فرقة موسيقية فلسطينية، آن لها ان توجد، فقد كانت هناك اغاني الثورة المعروفة، وهذه معظمها من كلمات الشاعرين الكبيرين الراحلين سعيد المزين وصلاح الدين الحسيني، واسماهما الشعبيان هما فتى الثورة أبو هشام وأبو الصادق، أما الألحان فكانت في معظمها من وضع موسيقيين مصريين أو فلسطينيين متأثرين بالثقافة الموسيقية المصرية، فلماذا لا نعمل على مشروع فلسطيني خالص؟

تحمس حسين نازك للفكرة وعلى الفور قال: نحن ننشد لفلسطين، كعشاق ذوي هوى، فهل نسمي ما ننتج " اغاني العاشقين"؟ واهتززنا طربا لفكرة حسين، ولم يلبث ابو علي أن أتبع فكرته بتطبيقات جمالية، عندما التقط بعض النصوص من شعراء الارض المحتلة، محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد، واختار منها ما شكل نواة البوم مضيفا

اليه " اللوز الأخضر" وفي تلك الفترة كانت دائرة الثقافة والإعلام تنتج عملها التلفزيوني الاول الذي اخرجه فيصل الياسري بعنوان "بأم عيني" والعنوان من كتاب المحامية اليهودية الشيوعية "فليتسيا لانغر" التي ضمنته وقائع من دفوعاتها عن الفدائيين الفلسطينيين المعتقلين، ولما تم تكليف حسين نازك بوضع موسيقى المسلسل، فانه اخذ تلك الاغاني التي اعدها في تلك التجربة وأعطى الألبوم عنوان المسلسل : "بأم عيني".

كان نجاح شريط بأم عيني مدويا في الاوساط الفلسطينية، فالكلمات المنتقاة ذات شعبية والحان ابي علي وصلت إلى وجدان الجمهور، حتى جاء يوم خاطبه فيه ابو منيف قائلا: "اللي طلع الجمل على السطح لازم يتابع أموره، بدأت فأكمل"، إذ لا يجوز أن يكون شريط "بأم عيني" بيضة ديك، وهكذا أصبحت أغاني العاشقين حقيقة قائمة.

-٢-

اخذ ابو علي حسين يختار بين تلامذته ومعجبيه من سيشكل نواة الفرقة، فتخفف اولا من كلمة " أغاني" مكتفيا بالعاشقين، لسبب محدد هو انه قرر اضافة مجموعة، تقدم الرقص الشعبي في مواكبة مجموعة الغناء، واهتدى إلى المصمم الراقص البديع ميرز ماردیني فكلفه بهذه المهمة، وميرز فنان سوري كردي، متدرب في المسرح العسكري السوري ذي السمعة الطيبة في مجال الرقص التعبيري، وقد نجح في تجميع راقصين مبدعين، وكانت بثينة منصور هي الاهم في هذه التشكيلة، اما على مستوى الغناء فكان ابو علي يختار من يضمه إلى مشروعه هذا بدقة ومقاييس صعبة، حتى ان لم يكن في تلك المجموعة من لا يعزف على الة شرقية في اقل تقدير، العود والإيقاع والقانون، مع منتخب يجيد العزف على الكمان.

واشهد لهذا الفريق الشاب، بالأذن الموسيقية التي كانت تناقش ابا علي في هذا المذهب الموسيقي أو ذاك، لكنهم عند التنفيذ يكونوا اشبه بالجيش المنظم من حيث الانضباط والالتزام، وقد برز في طليعة هؤلاء من اطلقنا

عليهم تحببا تعبير " الهبابشة" ذلك انهم ثلاثة أخوة وشقيقاتهم من أسرة هباش، خليل،خالد، محمد، آمنة، وفاطمة. واذا كانت الشقيقتان ركيزتين في القسم "الكورالي"، فقد كان خليل عازف إيقاع، وخالد عازف قانون ومجون، ومحمد الطفل المعجزة آنذاك يعزف على العود ويغني، ولديه قدرة ملحوظة على تقديم البرامج.

ولم تلبث دائرة الثقافة ان أنتجت مسلسلها التلفزيوني الثاني، "عز الدين القسام"، وقد كتبت قصة العمل ومعظم السيناريو، ثم سافرت إلى اليمن حيث اراد هيثم حقي مخرج العمل مزيدا من الاغاني للمسلسل، لاني ركزت في القصة على شخصية الشاعر نوح إبراهيم، رفيق درب القسام وقد استشهد بعد القسام بفترة. وقد تولى الشاعر المرحوم ابو الصادق، مهمة استكمال ما بدأته من اناشيد المسلسل على لسان نوح إبراهيم، ومن الطريف أن تداخل ما كتبناه أنا وأبو الصادق، بحيث لم نعد نفرق من صاحب هذه الكلمات من ذاك، حتى ان المرحوم احمد الجمل . وكان مدير عام الدائرة . قال ذات يوم: إن هذه الاغنية من كلمات احمد دحبور، فلما سألناه عن سر هذا الاستنتاج، قال: ان في الاغنية قولا: ما عاد فينا نستنى، وهذا التعبير ما عاد فينا بتأثير اللهجة السورية وأنت يا احمد كنت في سورية دائما فلا يقولها ابو الصادق ابن غزة!!

ان هذه المحادثة الطريفة تشير إلى مدى الانصهار في جهد القائمين على العمل، ولكن المهم في الامر ان اغاني مسلسل القسام كما كانت أغاني مسلسل " بأم عيني " هي من اداء العاشقين، ونتيجة للنجاح الكبير الذي حققته اغاني القسام، فقد افرد لها المرحوم ابو منيف البوما صوتيا خاصا، لا يزال الجمهور يتداوله حتى اليوم مع انه مكتوب في العام ١٩٨١،

وراحت الفرقة تزداد وتتكامل بكل من عناصر الغناء والرقص التعبيري الشعبي، اضيف إلى هؤلاء احمد الناجي عازف العود البارع، وكذلك يعرب البرغوثي، وذات الصوت القوي المتميز بمساحاته المتعددة سهام دغمان. ولكن لا يجوز اغفال ان قائد هذه الكوكبة الغنائية هو " الجبل

الذي يغني" حسين منذر وقد اطلقت عليه هذه الصفة في أول ما كتبت حول ميلاد فرقة العاشقين.

وبطبيعة الحال نجح حسين نازك، بإضافة عناصر جديدة باستمرار، وان كان يعول كثيرا على ميرز ماردیني، في اختيار عناصر الرقص التعبيري، حتى اتى ذات يوم شهد فيه مسرح عدن خمسة وعشرين فنانا بين عازف ومغن وراقص يصعدون المسرح مرة واحدة، ولا يمكن المرور على تلك التجربة دون توقف عند الجندي المجهول الذي كان يدير هذه المجموعة باقتدار وخبرة، فضلا عن عزفه على الفلوت، ذلك هو محمد سعد ذياب أبو ايمن.

-٣-

كان البوم العاشقين الأول، هو كما سبقت الإشارة أغاني مسلسل بأم عيني، وظل نظام هذه الاغاني يقود التجربة باستمرار، فالأغاني التي كتب نصوصها الشاعر ابو الصادق صلاح الدين الحسيني ولحنها الموسيقي المقدسي حسين نازك، ظلت تعتمد على الأداء الجماعي أساسا، إلا حين كانت الحاجة الفنية تقتضي ظهور "الصولو"، فكان حسين المنذر وهو أبو علي أيضا، بصوته الجبلي الجهير يصدح فيها ويعلو.

اما الالبوم الثاني، وقد وضع كلماته ايضا شاعرنا الكبير ابو الصادق، فهو ذو بناء درامي متميز، حيث اشتق ابو الصادق من فلكلورنا الشعبي شخصية "ظريف الطول" رامزا به الفلسطيني المجرب المناضل، الساعي إلى حبيبته " دلعونا" وهي رمز في هذا العمل للقضية الفلسطينية، وقد احتاج في هذا البناء الدرامي إلى استخدام الاغاني الشعبية المعروفة مثل دلعونا، وعلى ما قال المغنى والحوار بين الحادي والمستمع.

وهو ما التقطه ابو علي حسين نازك بحذق ودراية من حيث الابتكار الموسيقي، وتضمين الجملة الغنائية المتوارثة، ولأن العمل ذو طبيعة درامية فقد اقتضى اضافة شخصية جديدة هي الفتى المنشد الذي ادى

دوره باقتدار فاتن، محمد هباش، الذي كان لايزال في مقتبل العمر، اضافة إلى سهى التي شكلت اضافية ندية إلى العمل، واتسع دور الرقص التعبيري فابتكر ميرز ماردیني رقصات مثيرة تستوحي الدبكة الفلسطينية، وتضيف اليها وقد تألقت بثينة منصور في هذا الرقص الذي كان يقتضي في الاحوال العادية قامة طويلة لكنها وان لم تكن لها تلك القامة نجحت في الإقناع وإشعال حمية الجمهور.

ومن ينسى صيف ١٩٨٢، يومها شن العدو الصهيوني هجومه الشهير على الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية في لبنان، وكنت آنذاك في دمشق، اتابع الأخبار كأي عربي، مشدودا إلى التفاصيل والوقائع التي كانت تصل الينا بوسائل مختلفة، وحينذاك بدأت اكتب الاغاني المواكبة للوقائع أو بالأحرى وجدت نفسي أقوم بتأريخ العدوان غناءً، حتى ان اغنية " اشهد يا عالم علينا وع بيروت" كانت بمثابة تدوين لانتقال المعارك من الجنوب إلى بيروت وصولا إلى الذروة الدرامية الخاصة بخروج الفلسطينيين من لبنان، فوقوع مجزرة صبرا وشاتيلا ثم بروز المقاومة الفلسطينية اللبنانية في لبنان، وقد بلغت ذروتها في عملية مشهودة وقعت في صور وتحولت مجموعة النصوص التي أرّخت بها تلك المقاومة والصمود، إلى البوم بعنوان " الكلام المباح".

والطريف ان ورشة عفوية قد تشكلت في حينها فانا اكتب وأبو علي نازك يلحن، وأبو علي المنذر ومعه جملة العاشقين يغنون، وحين دعينا إلى عدن في العام ١٩٨٣، لنحتفل بذكرى الانطلاقة ظهرت على الملأ فرقة العاشقين لتردد بعدها الجماهير اغاني الكلام المباح، حتى ليمكن القول ان حفلة عدن . كما صرنا نسميها . كانت هي الانطلاقة لتوظيف الاصوات الفردية إلى جانب الصوت الجمعي، وظهر إلى جانب صوت أبو علي المنذر، صوتان فرديان هامان هما محمد هباش وسهى دغمان، وأصبحت الفرقة في وضع حساس، فهي في مستوى لا يجوز التراجع عنه أو البقاء عليه، وأصبحت تتلقى الكثير من الدعوات في الوطن العربي ودول المعسكر الاشتراكي، بل امكن احياء حفلات في لندن وباريس، وإلى ذلك اصبح للفرقة رصيد من الاغاني بما يحيي عددا من الحفلات.

وكان ابو ايمن، محمد سعد ذياب، يغذيني بجمل موسيقية محفوظة من فلكلورنا الشعبي التي تضافرت مع الحان ابي علي نازك لتجعل من العاشقين ظاهرة تستحق الاهتمام الكبير، اذ لم نتوقف عند البوم "الكلام المباح" فقد كتبت نصوصا جديدة، اطلقنا على بعضها اسم مغناة عتابا، تيمنا بنص كتبته لتأريخ ظاهرة العتابا في الفلكلور، بالترابط مع الحدث الفلسطيني، وجمع أبو ايمن هذه الأغاني التي أنجزناها متفرقة فأعطاها اسما خاصا " لوحتان" وكان يقصد مشهد الصمود الفلسطيني في الداخل، ووقائع تشكل الثورة الفلسطينية وتأثيرها في الوجدان العام.

ذلكم بعض ما تحفظه الذاكرة عن هذه الظاهرة التي ظلت مفتوحة باستمرار على الأحداث والتجارب الفنية الجديدة ولا يزال الحبل على الجرار.

شهادة ثانية

الأناشيد

بقلم: خالد مسمار

كان لأستاذنا ومعلمنا المرحوم فؤاد ياسين(أبو صخر) الفضل الأكبر في اختيار الأناشيد الأولى لصوت العاصفة، بالإضافة إلى اختيار الأصوات الإذاعية لها.

وروى لنا الأخ أبو صخر، انه كان لابد من نشيد للعاصفة، وهي الجناح العسكري لحركة فتح، بل هي عماد الحركة وعمودها، فقال: جئنا بالأخ صلاح الحسيني (أبو الصادق) وحصرناه في احدى الغرف المغلقة، المعزولة مادياً وصوتيا عن العالم وقلنا له: لا يفتح لك باب الغرفة قبل أن تضع كلمات فيها من المعاني والأفكار والمشاعر ما يلخص موقف فلسطين، فتح، العاصفة، بكل ما في ذلك من إثارة واستثارة، وخرج علينا أبو الصادق بالكلمات التي أصبحت فيما بعد نشيدا للعاصفة تفتتح به الإذاعة وتختتم به لدى كل إرسال:

"بسم الله، بسم الفتح، بسم الثورة الشعبية

بسم الدم، باسم الجرح، اللي بينزف حرية.

باسمك باسمك يا فلسطين،

اعلناها للملايين، عاصفة، عاصفة، عاصفة".

ومن مجلة "فلسطيننا" التي كانت تصدرها الحركة في بواكير إصداراتها تم اختيار ثلاثة نصوص شعرية بتوقيع فتى الثورة "أبو هشام" وهي: وصية شهيد، وعرس النصر، وانا ابن فتح.

يقول أستاذنا أبو صخر" أخذنا النصوص الأربعة، وذهبنا بها إلى منزل الفنان العربي الشهير " عبد العظيم محمد".

يقول المرحوم فؤاد ياسين "أبو صخر" جلسنا وعبد العظيم محمد وعادل القاضي، وقلنا لا نخرج ليلتنا هذه من عندك إلا بالحان لهذه النصوص.

قال مبهورا: كيف.

قلت: اليوم نأخذ اللحن جاهزاً وغدا التسجيل.

قال: ولكن ذلك بعيد عن الفن.

قلت: بالمقاييس العادية، وفي الأحوال المعتادة، كلامك صحيح ولكننا في أحوال خاصة ولنا مقاييس مختلفة.

قال: بالله عليك، كيف؟ قل لي كيف.

قلت: أولا هذه نصوص تؤديها المجموعة.

قال: هذا اصعب.

قلت: ولكننا لا نريد تطريبا ولا تغريبا، بل نريده أداء سهلا وبسيطا واضحا ومعبراً.

قال: حسنا اتركوني أياما انضج اللحن والنغم واسويه عملا فنيا.

قلت: لا أيام، ولا يوم، أمامنا ساعات قد تمتد إلى الفجر، ولكن لابد من إنجاز المطلوب.

ويواصل أبو صخر قائلا: وتحت الحاح عنيد، تركنا الفنان عبد العظيم محمد واختلى بعوده وبالأوراق بين يديه، ثم خرج علينا بعد ساعة أو تزيد ليسمعنا مشروع لحنه لنشيد العاصفة، وكان حقا رائعا فيما عدا بعض الملاحظات العارضة التي لم تستهلك زمنا طويلا لتعديلها أو تصحيحها،

وبعد ساعة أخرى، ولد نشيد وصية شهيد، الذي تقول كلماته،

"اغمس يراعك في دمي،"

وبعدها ولد نشيد "في عرس النصر، أنا زاحف في عرس النصر".

ثم اجهد الفنان وبدا عليه الإعياء، وقال وهو بين مصدق ومكذب، هل من المعقول أن افعل كل هذا في ليلة واحدة.

قال: لا هذا كثير، يكفي ما فعلناه الليلة.

قلت: ماذا لو عملنا نشيد بلا الآت موسيقية وبلا أدوات إيقاع، الناس في عادتهم ينشدون من غير جوقة موسيقية، فلماذا لا نجرب ؟

واغمض الفنان عينيه، وغاب في أعماق اللغز، واخذ النص ووضع النغم وكان أول نغم من نوعه رائعا بلا أي موسيقى، ومن غير أي إيقاع

وكان نشيد " أنا ابن فتح ما هتفت لغيرها ولجيشها المقدام صانع عودتي"

بعد انطلاق الإذاعة بوقت قصير، طلب الأخ أبو صخر من الأخ الكاتب والشاعر محمد حسيب القاضي رحمه الله أن يكتب أنشودة تتحدث عن المؤامرة، فجاءنا بكلمات نشيده المعروف وقد بدأها، لتسقط المؤامرة.

قال له أبو صخر: كيف

ردّ حسيب: كيف كيف.

قال أبو صخر: كيف تسقط المؤامرة؟ من ذا يسقطها.

قال حسيب: نحن نسقطها

قال أبو صخر: إذن فليكن القول : لِنُسقط المؤامرة

هكذا كان الحال مع الأناشيد، تدقق بالحرف والكلمة.

نشيد" كلاشينكوف" كلمة كلاشينكوف استطاع محمد حسيب القاضي أن يروّضها في نشيد كان له وقع ملحوظ بين المقاتلين والجماهير:

كلاشينكوف خلّي رصاصك في العالي

ما في خوف طول ما رصاصك في العالي

وكلمة الصهيونية: "الشعب الفلسطيني ثورة ثورة على الصهيونية،

حمل سلاحه وبدا كفاحه خذي يا ثورة واعطيني

خذي دمي وهاتي انتصارات"

ونشيد "احمي الثورة": استطاع أبو هشام في هذا النص أن يصنع بيانا ثوريا ويقدم تعريفا بليغا ومتكاملا للثورة وموقعها من الحياة والشعب.

"هذي الثورة للملايين،

للي شربوا الظلم سنين

للي جاعوا للي ضاعوا

للي عريوا للي التاعو

لليتامى للثكإلى

للي بسوق الظلم انباعو

للي سكنوا خيام الذل

للي حملوا ظلم الكل

للي حملوا الجرح وثاروا

للي هبوا للي لبوا

للي علوا اسمك واسمي

احمي الثورة بدمك احمي يا اخوي"

نشيد "جعبة وبارودة": كعادته صلاح الحسيني "أبو الصادق" يطلق كلماته المحببة للجميع : "اعطيني جعبة وبارودة، وزاد ثلاث أيام، ثلاث الغام، واطلقني، مش طالب ترافقني، احمي لي ظهري، يا خويا، وما تخلي ايدين الشر تلاحقني"

نشيد أنا يا أخي: كلمات أبو هشام أصبحت نشيدا يتغنى به شعبنا وأصدقاء شعبنا وحلفاؤه.

"أنا يا أخي آمنت بالشعب المضيع والمكبل

وحملت رشاشي لتحمل بعدي الأجيال منجل

وجعلت جرحي والدما للسهل والوديان جدول

دين عليك دماؤنا

والدين حق لا يؤجل".

أما الملحنون لهذه الأناشيد والذين لم تذكر أسماؤهم ولا أسماء مؤلفيهم فأذكر منهم: وجيه بدرخان، مهدي سردانة، احمد شريف، إبراهيم رجب، عبد الحميد توفيق زكي، كنعان وصفي، رياض البندك، طه العجيل، صبري محمود، عبد المنعم الحريري، وكان من طلائعهم

الأستاذ عبد العظيم محمد والموسيقار الفنان علي إسماعيل الذي وضع موسيقى كلمات أبو هشام المبدعة "فدائي" التي ما تزال حتى الآن هي النشيد الوطني الفلسطيني.

أشير هنا إلى مبادرة محمد حسيب القاضي حين جمع عددا من نصوص أناشيده في كتاب له بعنوان " نشيد للبندقية والرجل" وجعل إلى جانب كل نص منها النوتة الموسيقية التي تساعد من يهتم في عزفه أو تسجيله.

الخاتمة

لقد تعلمنا أصول العمل الإذاعي، على يد أساتذة كبار مجربين، فلسطينيين وعرب، إلا أن المدرسة أي الحاضنة التي منحتنا القدرة على تشرّب المهنة هي الإذاعة ذاتها، حياتنا اليومية فيها تفاعل الزملاء مع بعضهم البعض، تبادل الأفكار والخروج الدائم للعمل خارج المبنى، في الشارع في المخيم في قواعد الفدائيين في قلب المعارك، ذلك أن الإذاعة ليست مجرد مكان عمل أو استوديو وميكروفون، وقلم وصوت، إنها عالم أوسع من ذلك بكثير، إنها بالضبط ما يجري في داخلها وما يحيط بها وما هي مسؤولة عن نقله للناس.

لهذا يفشل حتما كل من يتخذ من العمل الإذاعي مجرد وظيفة يتقاضى راتبا منها، يذهب إلى الدوام اليومي كما لو انه ذاهب إلى وظيفة إدارية، ويغادر ما أن تشير الساعة إلى موعد المغادرة، كل الذين عملوا بهذه الطريقة، لم يتركوا بصمات إبداعية على العمل الإذاعي، كانوا مجرد موظفين وكفى.

الشروط التي يجب أن تتوفر في الكادر الإذاعي، هي ليست بالشروط القاسية أو المرهقة، بل إنها حين تقرر أن تكون إذاعيا مؤثرا ومبدعا، سهلة وممتعة، وأولها، المعلومات، يجب أن يكون لدى الإذاعي مخزون معلومات غني ومتجدد، وهذا يتطلب منه، أن يقرأ كثيرا وخصوصا في التاريخ والأدب، وان يتابع الإذاعات الأخرى، إذ لابد وان يستمع اكثر مما يذيع، وان يأخذ عن الأساتذة الكبار والمذيعين المتمكنين بعضا من إبداعاتهم في الأداء، دون أن يقع في النسخ والتقليد.

فالمذيعون الكبار المتمكنون، يعرفون كيف يبدأون وأين يتوقفون، انهم يقطعون الجمل بالقراءة كما لو انهم يؤدون أغنية، ويتوقفون طويلا أو لفترة قصيرة حسب مقتضيات المعنى، وافضل الطرق لإيصاله إلى المستمعين.

والمذيع في أيامنا هذه يختلف عن المذيعين في زماننا أي قبل ثلث قرن من أيامنا هذه، والأمور كلها تسير في صالحه اكثر مما كانت في صالحنا، فالمعلومات متوفرة بكثرة في الحواسيب، والكتب متوفرة ويمكن قراءتها والحصول عليها بضغطة زر، وهذا يجعل المذيع موسوعة معلوماتية إن أراد ويجب أن يريد ذلك، خصوصا وان المذيع ليس مجرد قارئ أخبار، أو قارئ تعليقات، انه في الأساس محاور، ينبغي أن يكون ندّا في الأسئلة حتى لو كان يحاور رئيس دولة، وينبغي أن يكون عارفا بالسياسة من كل جوانبها وملما بواقع الثقافة والفن، وكلما كان قارئا جيدا فانه حتما يكون اكثر إقناعا في حواره، وطريقة استخدامه للمفردات والحجج،

إلا أن الحاسوب، الذي يسد فراغ المعلومات، لا يستطيع تعويض اللغة، التي يتعين على المذيع أن يتقنها وان يعرف كيف يستخدمها لإيصال الأفكار، فالمذيع الناجح هو الذي يبتعد عن المفردات الصعبة، أو المصطلحات " المتقعرة" والتي غالبا ما يستخدمها قليلو الكفاءة اللغوية، للاختباء ورائها، فالمذيع يجب أن يتعامل مع اللغة بحس موسيقي، وبأداء سلس، كي يؤثر فيمن يسمعه.

والأمر ذاته مع مذيع التلفزيون، الذي يتفوق على مذيع الإذاعة بميزة استخدام لغة الجسد، التي يجب أن يعبر فيها الوجه عن المعاني دون مبالغة، فمذيع الإذاعة الذي يُسمع ولا يُرى يستخدم نبرات الصوت لخدمة المعنى، أما مذيع التلفزيون الذي يُرى ويُراقب ويُمتحن فان لم يتقن لغة الجسد فان حضوره يفقد كثيرا من المزايا حتى يبدو أحيانا مثل صورة جامدة تحرك الشفاه فقط. أن هذه الأشياء وان كان ضروريا التعرف عليها بصورة نظرية إلا أنها

تتصل بالممارسة، أي أن المذيع الذي يتعب على نفسه ويواظب على تطوير الجانب المهني في عمله لابد وان يصل مرحلة يكتشف فيها المزايا بنفسه دون أن يدله عليها احد.

وهنا اختم بخلاصة، هي أن المذيع في الإذاعة أو التلفزيون يجب أن يحرص على تكريس شخصية إذاعية تميزه عن غيره، وهذه الشخصية هي مزيج من الوعي واللغة والصوت والأداء، وتكييف الوجه مع المعاني، وهذه موهبة تحدد الخط الفاصل، بين المذيع العادي والنمطي والمذيع المبدع والجذاب وكل من يقف أمام الكاميرا أو الميكروفون يجب أن لا يغيب عن ذهنه أهمية أن يكون مبدعا وجذابا.

منشورات مواطن

سلسلة دراسات وأبحاث

الديمقراطية الفلسطينية بين الخطاب والممارسة: منظمة التحرير الفلسطينية وأطرها ١٩٦٤-١٩٩٣
عمر عساف

"قانون" التشريع و"قانون" الحرية: هل الديمقراطية بديل عن حكم القانون؟
عاصم خليل

موقع حركات الإسلام السّياسي في الثّورات الشّعبيّة العربيّة وفيما بعدها
(دراسة حالة: مصر وتونس)
منذر مشاقي

دراسات في الديمقراطية و وسائط الإعلام
لينة الجيوسي

دراسات في الثقافة والتراث والهوية
شريف كناعنة

العَتَبَة في فتح الإبستيم
إسماعيل ناشف

العمالة الفلسطينية في إسرائيل ومشروع الدولة الفلسطينية
ليلى فرسخ

مدخل في تاريخ الديموقراطية في اوروبا
عبد الرحمن عبد الغني

النساء والقضاة والقانون: دراسة أنثروبولوجية للمحكمة الشرعية في غزة
نهضة يونس شحادة

نساء على تقاطع طرق: الحركة النسوية الفلسطينية بين الوطنية والعلمانية والهوية الإسلامية
إصلاح جاد

في المسألة العربية: مقدمة لبيان ديمقراطي عربي
عزمي بشارة

تمكين الأجيال الفلسطينية: التعليم والتعلم تحت ظروف قاهرة
تفيدة جرباوي وخليل نخلة

"وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ": الإسلاميون والديمقراطية
رجا بهلول

فلسطين الى أين؟ تلاشي حل الدولتين (باللغة الإنجليزية)
تحرير جميل هلال

الطبقة الوسطى الفلسطينية، بحث في فوضى الهوية والمرجعية والثقافة
جميل هلال

النظام السياسي الفلسطيني بعد اوسلو: دراسة تحليلية نقدية
(طبعة ثانية - مزيدة)
جميل هلال

نظريات الانتقال إلى الديمقراطية: إعادة نظر في براديغم التحول
جوني عاصي

من التحرير إلى الدولة: تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٤٨ - ١٩٨٨
هلغى باومغرتن

تقاسيم زمّار الحيّ - مقالات
فيصل حوراني

بروز النخبة الفلسطينية المعولمة (باللغة الانجليزية والعربية)
ساري حنفي وليندا طبر

الحداثة المتقهقرة: طه حسين وأدونيس
فيصل دراج

صفد في عهد الانتداب البريطاني ١٩١٧ - ١٩٤٨
مصطفى العباسي
بالتعاون مع مؤسسة الدراسات الفلسطينية والمقدسية

الجبل ضد البحر
سليم تماري

من يهودية الدولة حتى شارون: دراسة في تناقض الديمقراطية الإسرائيلية
عزمي بشارة

تشكل الدولة في فلسطين (باللغة الانجليزية)
تحرير: مشتاق خان، جورج جقمان، انج أمندسن

مستقبل النظام السياسي الفلسطيني والآفاق السياسية الممكنة
تحرير: وسام رفيدي
وقائع مؤتمر مؤسسة مواطن، ومعهد ابراهيم ابو لغد ٢٠٠٤

التربية الديمقراطية، تعلم وتعليم الديمقراطية من خلال الحالات
ماهر الحشوة

حركة معلمي المدارس الحكومية في الضفة الغربية ٢٠٠٠-١٩٦٧
عمر عساف

المجتمع الفلسطيني في مواجهة الاحتلال: سوسيولوجيا التكيف المقاوم خلال انتفاضة الاقصى
مجدي المالكي واخرون

اسطورة التنمية في فلسطين: الدعم السياسي والمراوغة المستديمة
خليل نخلة

جذور الرفض الفلسطيني ١٩١٨-١٩٤٨
فيصل حوراني

القطاع العام ضمن الاقتصاد الفلسطيني
نضال صبري

هنا وهناك نحو تحليل للعلاقة بين الشتات الفلسطيني والمركز
ساري حنفي

تكوين النخبة الفلسطينية
جميل هلال

الحركة الطلابية الفلسطينية : الممارسة والفاعلية
عماد غياظة

دولة الدين ، دولة الدنيا : حول العلاقة بين الديمقراطية والعلمانية
رجا بهلول

النساء الفلسطينيات والانتخابات ، دراسة تحليلية
نادر عزت سعيد

المرأة وأسس الديمقراطية
رجا بهلول

النظام السياسي الفلسطيني بعد اوسلو : دراسة تحليلية نقدية
جميل هلال

ما بعد اوسلو : حقائق جديدة (باللغة الانجليزية)
تحرير : جورج جقمان

ما بعد الازمة : التغييرات البنيوية في الحياة السياسية الفلسطينية ، وآفاق العمل
وقائع مؤتمر مواطن ٩٨

التحرر ، التحول الديمقراطي وبناء الدولة في العالم الثالث
وقائع مؤتمر مواطن ٩٧

اشكالية تعثر التحول الديمقراطي في الوطن العربي
وقائع مؤتمر مواطن ٩٦

العطب والدلالة في الثقافة والانسداد الديمقراطي
محمد حافظ يعقوب

رجال الاعمال الفلسطينيون في الشتات والكيان الفلسطيني
ساري حنفي

مساهمة في نقد المجتمع المدني
عزمي بشارة

حول الخيار الديمقراطي
دراسات نقدية

سلسلة رسائل الماجستير

مَكَانَةُ المَرأَةِ في الإِسْلامِ فِي ظِلِّ تَأْوِيلِ آيَةِ القوَامَة منظور فلسطيني
مي البزوري

مرجعية الخطاب السياسي الإسلامي في فلسطين
خالد علي زواوي

الدبلوماسية العامة الفلسطينية بعد الانتخابات التشريعية الثانية
دلال باجس

الإنتخابات والمعارضة في المغرب بين التحول الديمقراطي واستمرارية النظام السلطوي (١٩٩٧-٢٠٠٧)
نشأت عبد الفتاح

عن النساء والمقاومة: الرواية الاستعمارية
أميرة محمد سِلْمي

التغيير السياسي من منظور حركات الإسلام السياسي: "حماس" نموذجا
بلال الشوبكي

المجتمع المدني "بين الوصفي والمعياري": تفكيك إشكالية المفهوم وفوضى المعاني
ناديا أبو زاهر

النقد والثورة: دراسة في النقد الاجتماعي عند علي شريعتي
خالد عودة الله

حركة "فتح" والسلطة الفلسطينية: تداعيات أوسلو والانتفاضة الثانية
سامر إرشيد

سلسلة مداخلات واوراق نقدية

مداخلات حول الدين والديمقراطية والدولة المدنية
تحرير: رجا بهلول

الفلسطينيون على جانبي الخط الأخضر في ظروف سياسية متغيّرة
(وقائع ورشة عمل، ٤-٥ آذار ٢٠١١ في رام الله)
تحرير: حسن خضر

الإعلام الفلسطيني والإنقسام: مرارة التجربة وإمكانيات التحسين
تحرير: خالد الحروب وجمان قنيص

قبل وبعد عرفات: التحول السياسي خلال الانتفاضة الثانية
جورج جقمان

أن تكون عربياً في أيامنا
عزمي بشارة

المنهاج الفلسطيني اشكاليات الهوية والمواطنة
عبد الرحيم الشيخ (محرراً)

الحريات المتساوية حقوق المرأة بين الديمقراطية - الليبرالية وكتب التربية الإسلامية
وليد سالم وإيمان الرطروط

اليسار والخيار الاشتراكي قراءة في تجارب الماضي، واحتمالات الحاضر
داوود تلحمي

تهافت أحكام العلم في إحكام الإيمان
عزمي بشارة

الديمقراطية والإنتخابات والحالة الفلسطينية
وليم نصار

إطار عام لعقيدة أمن قومي فلسطيني
حسين آغا وأحمد سامح الخالدي

نحو أممية جديدة: قراءة في العولمة/ مناهضة العولمة والتحرر الفلسطيني
علاء محمود العزة وتوفيق شارل حداد

التنظيمات والأحزاب السياسية الفلسطينية
جميل هلال

الأحزاب السياسية الفلسطينية والديمقراطية الداخلية
طالب عوض وسميح شبيب

الراهب الكوري . . سَفَر وأشياء أخرى
زكريا محمد

واقع التعليم الجامعي الفلسطيني: رؤية نقدية
ناجح شاهين

طروحات عن النهضة المعاقة
عزمي بشارة

ديك المنارة
زكريا محمد

لئلا يفقد المعنى (مقالات من سنة الانتفاضة الاولى)
عزمي بشارة

في قضايا الثقافة الفلسطينية
زكريا محمد

ما بعد الاجتياح: في قضايا الاستراتيجية الوطنية الفلسطينية
عزمي بشارة

المسألة الوطنية الديمقراطية في فلسطين
وليد سالم

الحركة الطلابية الفلسطينية ومهمات المرحلة تجارب وآراء
تحرير مجدي المالكي

الحركة النسائية الفلسطينية اشكاليات التحول الديمقراطي واستراتيجيات مستقبلية
وقائع مؤتمر مواطن ٩٩

اليسار الفلسطيني : هزيمة الديمقراطية في فلسطين
علي جرادات

الخطاب السياسي المبتور ودراسات أخرى
عزمي بشارة

أزمة الحزب السياسي الفلسطيني
وقائع مؤتمر مواطن ٩٥

المجتمع المدني والتحول الديمقراطي في فلسطين
زياد ابو عمرو واخرون

الديمقراطية الفلسطينية
موسى البديري واخرون

المؤسسات الوطنية، الانتخابات والسلطة
اسامة حلبي واخرون

الصحافة الفلسطينية بين الحاضر والمستقبل
ربى الحصري واخرون

الدستور الذي نريد
وليم نصار

سلسلة اوراق بحثية

الفضائيات الدينية : الصورة المثالية للمرأة وأثرها على النساء في فلسطين
جمان قنيص

الحركة الطلابية الإسلامية في فلسطين الكتلة الإسلامية . . نموذجاً
دلال باجس

دراسات اعلامية ٢
تحرير : سميح شبيب

دراسات اعلامية
تحرير : سميح شبيب

الثقافة السياسية الفلسطينية
باسم الزبيدي

العيش بكرامة في ظل الاقتصاد العالمي
ملتون فيسك

الصحافة الفلسطينية المقروءة في الشتات ١٩٦٥-١٩٩٤
سميح شبيب

التحول المدني وبذور الانتماء للدولة في المجتمع العربي والاسلامي
خليل عثامنة

المساواة في التعليم اللامنهجي للطلبة والطالبات في فلسطين
خولة الشخشير

التجربة الديمقراطية للحركة الفلسطينية الاسيرة
خالد الهندي

التحولات الديمقراطية في الاردن
طالب عوض

النظام السياسي والتحول الديمقراطي في فلسطين
محمد خالد الازعر

البنية القانونية والتحول الديمقراطي في فلسطين
علي الجرباوي

سلسلة التجربة الفلسطينية

صوت العاصفة : سيرة إذاعات الثورة الفلسطينية في المنفى
نبيل عمرو

شيوعيون في فلسطين: شظايا تاريخ منسي
موسى البديري

ثَمَناً للشَّمْس
عائشة عودة

سَأُحَدِّثُكُم عَن هَاجس : مجموعة نصوص أدبية ل أقلام جديدة
تقديم وتحرير هَيفاء أسعد

المقاوَمة الشعبية في فلسطين تاريخ حافل بالأمل والإنجاز
مازن قمصية

شفيق الحوت
سميح شبيب (محرراً)

أنيس صايغ والمؤسسة الفلسطينية السياسات، الممارسات، الإنتاج
سميح شبيب (محرراً)

انتفاضة الأقصى: حقول الموت
محمد دراغمة

أحلام بالحرية (الطبعة الثانية)
عائشة عودة

الواقع التنظيمي للحركة الفلسطينية الأسيرة دراسة مقارنة ١٩٨٨-٢٠٠٤
اياد الرياحي

مغدوشـة : قصـة الحرب على المخيمات فـي لبنـان
ممدوح نوفل

يوميات المقاومة في مخيم جنين
وليد دقة

أحلام بالحرية
عائشة عـودة

الجري الى الهزيمة
فيصل حوراني

أوراق شاهد حرب
زهير الجزائري

البحث عن الدولة
ممدوح نوفل

سلسلة مبادئ الديمقراطية

ما هي المواطنة؟ — المحاسبة والمساءلة
فصل السلطات — الحريات المدنية
سيادة القانون — التعددية والتسامح
مبدأ الانتخابات وتطبيقاته — الثقافة السياسية

حرية التعبير العمل النقابي
عملية التشريع الاعلام والديمقراطية

سلسلة ركائز الديمقراطية

التربية والديمقراطية
رجا بهلول

حالات الطوارئ وضمانات حقوق الانسان
رزق شقير

الدولة والديمقراطية
جميل هلال

الديمقراطية وحقوق المرأة بين النظرية والتطبيق
منار شوربجي

سيادة القانون
اسامة حلبي

حقوق الانسان السياسية والممارسة الديمقراطية
فاتح عزام

الديمقراطية والعدالة الاجتماعية
حليم بركات

سلسلة تقارير دورية

أوراق في النظام السياسي الفلسطيني وانتقال السلطة

واقع التمييز في سوق العمل الفلسطيني من منظور النوع الاجتماعي
صالح الكفري، خديجة حسين نصر

نحو قانون ضمان إجتماعي لفلسطين

تطوير قواعد عمل المجلس التشريعي نحو قانون للسلطة التشريعية
إعداد : جهاد حرب اشراف: عزمي الشعيبي

نحو نظام انتخابي لدولة فلسطين الديمقراطية
جميل هلال، عزمي الشعيبي وآخرون

الاعمال التشريعية الصادرة عن رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية
سناء عبيدات

دراسة تحليلية حول أثر النظام الانتخابي على تركيبة المجلس التشريعي القادم
احمد مجدلاني، طالب عوض

هذا الكتاب

بعد ما يقارب ثلث القرن، على صدور كتابي **أيام الحب والحصار**، وجدت أن ثمة أبعاداً للحكاية تبرر العودة إليها، وتسليط مزيد من الضوء على تجربة الإعلام الفلسطيني.

أيام الحب والحصار يحكي تجربة الإذاعة الفلسطينية في بيروت، وخصوصاً أثناء الاجتياح الاسرائيلي للبنان في العام ١٩٨٢، وقد رأيت أن أُعيد نشر هذه التجربة مع إضافات جديدة، لعلها تكون مفيدة للأجيال الإذاعية والإعلامية التي تتداول الأثير، وتنشر في فضائه اللامتناهي ما يجب أن يُنشر عن فلسطين والقضية والوطن والمجتمع والناس والحلم.

نبيل عمرو

ولد نبيل عمرو في ٦/٩/١٩٤٧ في بلدة دورا قضاء الخليل. درس الحقوق في جامعة دمشق، والاعلام في مصر.

بدأ حياته العملية متفرغا في الثورة الفلسطينية. عمل رئيسا لاذاعة الثورة ورئيسا لاتحاد الاذاعات العربية، وسفيرا في الاتحاد السوفياتي ومصر ومندوبا دائما لفلسطين في جامعة الدول العربية.

كان احد المساعدين المباشرين للرئيس ياسر عرفات وعضوا في اللجنة العليا لتوجيه المفاوضات الفلسطينية الاسرائيلية وعضو في المجلس التشريعي الفلسطيني الأول، عمل وزيرا للشؤون البرلمانية ووزيرا للاعلام، ومستشارا للرئيس للشؤون الثقافية والاعلامية.

ألف عددا من الكتب: **الف يوم في موسكو، ياسر عرفات وجنون الجغرافيا وأيام الحب والحصار**

مواطن المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية

ISBN 978-9950-312-79-1